علم البيان

فى

ميزان البلاغة والنقد

أ.د/ فتحية محمود فرج العقدة
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الازهر

الطبعة الثانية
١٤٣٥-١٤٣٦ هـ
٢٠١٤-٢٠١٥ م

علم البيان
في
ميزان البلاغة والنقد

أ.د. فتحية محمود فرج العقدة
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية
١٤٣٥-١٤٣٦ هـ
٢٠١٤-٢٠١٥ م

رقم الإيداع
٢٤١٩٤/٢٠٠٨

سم الله الرحمن الرحيم

"وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وبعد؛

فهذه المحاضرات في علم البيان، تناولت فيها دراسة ذلك العلم وما تشتمل عليه من أساليب بلاغية تتطلب دراستها دقة الوعي بأسرار التعبير العربي، وأنماطه وصوره، وغاياته وقيمته، ليلتمس الدارس من خلالها الحس البلاغي الذي يعينه على تذوق الأساليب العربية، ويمده بالقدرة على الموازنة بينها قوة وضعفاً، سمواً وهبوطاً في ضوء الميزان النقدي والبلاغي ،من خلال إتباع الدراسة البلاغية، بالتحليل الأسلوبي النقدي الذي يوضح قيمتها و شأنها و أسباب بلاغتها .

وإذ أقدم هذه المحاضرات للدارسين والدارسات، أرجو أن تؤتي ثمارها المرجوة، وتساهم بدورها في صقل شخصياتهم العلمية بالعود إلى أصول هذه الدراسة في أمهات الكتب البلاغية التي تشكل في جملتها أصول هذا العلم وينابيعه التي ينهل منها الباحثون في مختلف العصور.

كما أرجو أن يكون لهذه الدراسة آثارها في توسيع وتعميق فهم أساليب هذا العلم وغاياته لينطلق الدارسون بأفق واسع ودراية علمية واعية إلى فهم كتاب الله تعالى، وبذل الجهد في تبين وجوه إعجازه وأسرار سموه .

و الله و لي التوفيق

تمهيد

أولاً: وقفة مع التراث البلاغي

هذه نبذة مختصرة عن تراثنا البلاغي وبعض رواده الذين كان لهم أثر بارز في تطور البلاغة العربية ودراستها:

أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ:

هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري كان عالما بالفقه واللغة، ولكن غلب عليه الأدب والشعر، وقد ألم بمعظم ما قاله النقاد قبله، ولذلك أودع كتابه (الصناعتين) زبدة الكتب التي ألفت في هذا الفن، وكان لها أثرها في تطور البلاغة العربية.

وأودع كتابه هذا كثيرا من نثره وشعره، وواضح من أثاره الأدبية أنه كان من أنصار مذهب البديع، ولذلك أورد منه في كتابه خمسة وثلاثين نوعا، ودافع في أثناء الكتاب عنها، واستعملها في نثره، ومن نثره قوله :

" إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا، ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر، وإذا كان المعنى صوابا، واللفظ باردا فاترا – والفاتر شر من البارد – كان مستهجنا ملفوظا، ومذموما مردودا ".

ولقد جعل أبو هلال أهم أهداف البيان أو البلاغة غرضا كلاميا هو إعجاز القرآن، ولذلك كان علم البلاغة في نظره " أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، إذ بهذا العلم يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها... والإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها، فينبغي من هذه الجهة أن يقوم اقتباس هذا العلم – علم البلاغة – على سائر العلوم ".(1)

ابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦ هـ:

صاحب كتاب " سر الفصاحة "، وهو أثر من أنفس الآثار البيانية، لأنه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها، وفقه لغتها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي، مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي.

---

(١) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: ١، ٢

ويمتاز منهج ابن سنان بوجه عام بأنه سار بالبلاغة والنقد الأدبي سيرا مزدوجا، فيه التجديد والتعريف، وإلى جانبه النص والمثال، وإلى جانبهما الرأي في الإصابة أو سوء الاستعمال.

ولقد رأى " ابن سنان " ما رآه " أبو هلال العسكري " من أن للبلاغة أو للفصاحة هدفين : أحدهما هدف أدبي هو معرفة الأدب والبصر بنقده، والثاني ديني، وهو الاهتداء بالفصاحة أو البلاغة إلى وجه الإعجاز في القرآن الكريم .

وهو يوجه الكثير من الجهد إلى الفصاحة، وهو ما نقله علماء البلاغة بعده نقلا يكاد يكون حرفيا، وجعلوه مقدمة لدراسة فنونها الثلاثة التي لم يفرق بينها الخفاجي كما لم يفرق بينها سابقوه من الباحثين في البيان العربي، هذا الكلام في الفصاحة الذي جعله البلاغيون مقدمة لكلامهم من صميم النقد الأدبي، وهو عام شامل لا يدخل في موضوع علم من العلوم الثلاثة على حسب تقسيماتهم.

ويؤخذ على الخفاجي أنه ذهب إلى أن الفصاحة وصف للألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، ذلك أن الفصاحة إذا كان معناها الظهور والبيان كما أورد فإنها تكون وصفا للفظ والتركيب.

وعلى أية حال فإنه عنى عناية ظاهرة بدراسة اللفظة المفردة، ثم تجاوزها إلى الكل الذي ينشأ من مجموع الكلمات، والنظم الذي يتألف منها.

وهو يقدم عبر ذلك جهدا مرموقا يزود الدراسات البلاغية والنقدية بما يشحذ الملكة ويرشد إلى مواضع الإجادة ومواطن الزلل.

عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ:

يلقب القاهر الجرجاني بإمام البلاغة، و إذا حاول الباحث استنباط معنى البيان عنده، فإنه يلاحظ أن مصطلحات: الفصاحة والبراعة والبلاغة والبيان تكاد تتقارب في نظره لأنها جميعا يعبر بها عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا و تكلموا.

ومن دلائل ذلك أنه حين أراد أن يشيد بالبيان وفضله، قال دون تحديد منضبط :" ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ اصلا وأبسق فرعا، وأحلى جني ... من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ويصوغ الحلي ويلفظ الدر وينفث السحر ...". (١)

وإذا كان هذا هو فهم عبد القاهر لدلالة هذه المصطلحات وتقاربها في ذهنه، فقد كان ذلك شائعا بين أولئك الذين عاصروه، والذين سبقوه حين لم يحاولوا الفصل بين الدراسات البيانية أو تقسيمها إلي فنونها الثلاثة : المعاني و البيان و البديع.

ويرى المتأمل لكتابي عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة جهدا عظيما ومنهجا خاصا متميزا لم يسبق إليه.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز: ٥ وما بعدها .

وكتابه " أسرار البلاغة " يتضمن أهم المباحث التي يدرسها البلاغيون في " علم البيان " إذا استثنينا بعض المباحث البديعية التي وردت في ثنايا البحث كالسجع و التجنيس و التطبيق وحسن التعليل.

ومن أمتع المباحث في ذلك مبحثه في الاستعارة المفيدة والاستعارة غير المفيدة، والاستعارات المتحدة في الجنس المختلفة في الأنواع، والتي يقول فيها :" إن الذي يستحق أن يكون أولا من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودا في المستعار له، من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص والقوة والضعف، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه، ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة. وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو. والسباحة له إذا عدا عدوا كان حاله فيه شبيها بحالة السابح في الماء، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد، من حيث الحركة على الإطلاق. إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها ؛ فأفردوا حركة كل نوع منها باسم، ثم إنهم إذا وجدوا في الشيء في بعض الأحوال شبها من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس، فقالوا في غير ذي الجناح (طار) كقول

الشاعر : " وطرت بمنصلي في يعملات " [1] ، و كما جاء في الخبر " كلما سمع هيعة طار إليها " [2].

ويعني عبد القاهر بأثر الذوق في تتبع وجوه الفضل في الأساليب البلاغية وتقدير قيمتها، فيقول :" إنك إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول إنه حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، و فضل يقتدحه العقل من زناده" [3].

ابو يعقوب يوسف السكاكي ت ٦٢٦ هـ :

نشأ أبو يعقوب يوسف السكاكي نشأة علمية فلسفية فتبحر في دراسة الكلام والمنطق والفلسفة، واتضحت آثار هذه الدراسة في كتابه (المفتاح)، وقد اشتمل هذا الكتاب على علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والعروض، غير أن العلماء عنوا عناية خاصة بالقسم الثالث من هذا الكتاب وهو قسم البلاغة.

---

(١) المنصل بوزن القنفذ السيف و يفتح الصاد، واليعملات جمع يعملة وهي الناقة النجيبة المطبوعة علي العمل .

(٢) الهيعة : الصوت الذي يفزع و يخاف من العدو،عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة٢٢ :٤٠ .

(٣) السابق : ٣ .

والمؤرخ الكبير "ابن خلدون" يعتبر "السكاكي" صاحب الفضل في علوم البلاغة، وفي ذلك يقول في كتابه المعروف بالمقدمة عند تأريخه لعلوم البيان و" أطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى، والجاحظ وقدامة، وأمثالهم إملاءات غير وافية، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه ".

فلقد قسم السكاكي البلاغة إلي ثلاثة علوم هي علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، الذي جعله تابعا لهما وقد تابعه البلاغيون في هذا التقسيم.

الخطيب القزويني ت ٧٣٩ هـ:

هو جلال الدين قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن الشافعي. لقد نظر الخطيب فيما كتبه عبد القاهر والسكاكي، و اطلع على كتب أخرى في البلاغة، ثم ألف كتابا جامعا لما اطلع عليه، مضيفا إليه ما اهتدى إليه عقله.

ولقد عمد إلى القسم الثالث من (مفتاح العلوم) و لخصه، ثم شرح هذا الملخص.

يحيى بن حمزة العلوي ت ٧٤٥ هـ:

ألف العلوي في فنون كثيرة، ومن كتبه ". المحصل في شرح أسرار المفصل في النحو" وهو أربعة مجلدات، و" الإيضاح لمعاني المفتاح "، وقد قيل إن مؤلفاته بلغت مائة مجلد.

وكتابه "الطراز" من الكتب المعدودة في البلاغة، وهو ثلاثة أجزاء، ويمتاز بأنه سهل العبارة، كثير الشواهد، جيد التفصيل والتبويب، تضمن علوم البلاغة الثلاثة، وتتمة ذكر فيها فصاحة القرآن ووجه إعجازه، وأقوال العلماء في ذلك، ثم ختمه بأجوبة عما وجهه الملاحدة إلى القرآن وضلوا فيه ضلالا كبيرا.

سعد الدين التفتازاني ت ٨٩١ هـ:

هو أحد شراح التلخيص، شرحه اولا بكتاب سماه " المطول " وهو كتاب قيم، سهل العبارة كثير الفوائد، ثم وجد أن الناس قد تقاصرت هممهم عن الدرس، وقعدت عزائمهم عن النظر في كتابه،

وأن فن البلاغة قد " نضب ماؤه جدالاً بلا أثر، وذهب رواؤه فعاد خلافا بلا ثمر " كما طلب إليه كثير من الفضلاء اختصار كتابه "المطول" فاستجاب لكل هذه الأسباب، ووضع شرحا أخر على التلخيص عرف فيما بعد بالمختصر، وهو المشهور الآن (بالسعد) ، وقد وضعت عليه عدة حواش، منها حاشية البناني، وحاشية الدسوقي.

" البيان " و تطور معناه في التراث النقدي و البلاغي

مرت المصطلحات البلاغية بوجه عام – عبر التاريخ النقدي والبلاغي بمراحل عديدة حتي استقرت دلالاتها.

وكان " البيان " واحدا من تلك المصطلحات التي سلكت خلال رحلتها في تاريخ البلاغة العربية مسارا دلاليا متنوع الاتجاهات حتى استقر على يد أبي يعقوب يوسف السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) علما من علوم البلاغة الثلاثة له ميدانه الخاص ومباحثه المستقلة.

ويمكن إجمال الدلالات التي مرت بها لفظة البيان و إيضاحها في ثلاثة جوانب :

١ـ الاستخدام اللغوي وهو ما كان يقصد به (الدلالة بوجه عام).

٢ـ استخدامها مرادفة لكلمتي الفصاحة والبلاغة، أي أنها كانت تعني (الدلالة الفنية).

٣- إطلاقها على أحد علوم ألبلاغة الثلاثة بعد تقسيمها بحيث صار يقصد بها ذلك العلم و ما يضمنه من أنماط التعبير التي تشكل في مجموعها أقسامه أو أبوابه.

البيان عند الجاحظ ت ٢٥٥ هـ:

ألف " الجاحظ " كتابه الشهير " البيان والتبيين "، وحدد فيه مفهوم البيان بأنه : " الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي "، ثم عقب على ذلك بما يفيد اتساع هذا المفهوم في نظره "، فقال :" والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجرى إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام،وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع " (١).

كما ذكر الجاحظ تعريف "جعفر بن يحيى" للبيان فقال : "البيان أن يحيط الاسم بمعناك ويجلى عن مغزاك، و يخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف، بعيدا عن الصنعة، بريئا من التعقيد، غنيا عن التأويل" (٢).

---

(١) الجاحظ : البيان و التبيين : ١ : ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) السابق : ١٠٦ .

فالبيان عند الجاحظ يدور حول الفهم والإفهام والكشف والإيضاح، مع حاجة إلى إحكام الصنعة وسهولة المخرج وجهارة المنطق وإقامة الوزن وتكميل الحروف.

ولقد حصر الجاحظ أنواع البيان أو أنواع الدلالة في خمسة أشياء هي :

دلالة اللفظ ودلالة الإشارة ودلالة العقد (وهو ضرب من الحساب بأصابع اليدين) ودلالة الخط ودلالة النصبة التي هي (الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق ... ولذلك قال : سل الأرض من شق أنهارك، و غرس أشجارك، و جني ثمارك، فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا).

فهذا مفهوم واسع للبيان يتسع عن مفهوم البلاغة بعلومها الثلاثة، لدى المتأخرين، ذلك أن الجاحظ ارتضى في وصف البلاغة قول القائل :

" لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسبق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك" (١)، وفي الوقت نفسه نجد ثلاثة من أنواع البيان عنده وهي الإشارة، والعقد، والنصبة ليست كلاما أصلا.

---

(١) السابق : ١١٥ .

البيان عند الرماني ت ٣٨٦ هـ:

أما عند الرماني صاحب كتاب " النكت في إعجاز القرآن "، فالبيان هو " الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره " و هو أربعة أقسام :

" كلام وحال وإشارة وعلامة " [١] وهو متأثر في ذلك – كما هو واضح – برأي الجاحظ.

والفكرة التي كانت تشغل الرماني في كتابه هذا هي فكرة الإعجاز القرآني، وهو يرى أنه إعجاز بلاغي، ومن ثم كان تركيزه على القسم الأول من أقسام البيان " الكلام " إذ البلاغة لا تكون إلا في كلام، فهذا الكلام أو " البيان اللغوي " درجات متفاوتة أدناه ما يحقق الفهم و الإفهام، ثم يتسامى في درجات الفنية بمقدار عمق تأثيره – بخصائصه الفنية – في وجدان الملتقى، حتى إذا بلغ في ذلك أسمى درجاته كان الإعجاز.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن لعبد القاهر و الرماني و الخطابي ١٠٦ ، دار المعارف، ١٩٥٦ .

وفي ذلك يقول الرماني :" وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قبل أن يكون على عي وفساد ... وحسن البيان في مراتب : أعلاها ما جمع أسباب الحسن في العبارة، من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس ... وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة ".

ومعنى هذا أن التفاوت بين درجات الكلام له دلالته علي أن البلاغة في نظره هي درجة خاصة من البيان، ومن ثم كان وصفه للبلاغة بأنها "حسن البيان".

وواضح من جميع ذلك أن مفهوم البيان لدى الرماني – أيضا – أعم من مفهوم البلاغة.

البيان عند عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ :

أخذت علاقة البيان بالبلاغة تنحو نحو التخصص على يد "عبدالقاهر الجرجاني "، فبعد أن كانت علاقة اللفظتين علاقة عموم وخصوص أصبحت علاقة ترادف أو تماثل – كما سلف الذكر – وهذا ما يدل عليه استخدامه لهذين المصطلحين في كتابه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة ".

فالبيان لم يكن يعني - عند عبد القاهر - مجرد الكشف عن المعنى، أو مجرد الدلالة عليه بأي من أنواع الدلالات، بل صار معبرا عما تعبر عنه ألفاظ البلاغة و الفصاحة، لذلك أخذ يعيب على سابقيه توسعهم في معنى البيان توسعا أدى إلي الخلط والاضطراب، وأضر بمعنى الفصاحة والبلاغة أيضا؛ فهو يقول :" (إنك) ترى كثيرا منهم لا يرى له (أي : للبيان) معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما تجده للخط والعقد، ويسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة، فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جاري اللسان، لا تعترضه لكنة، ولا تقف به حبسة، وأن لا يستعمل اللفظ الغريب ... لا يعلم أن ها هنا دقائق وأسرارا طريق العلم بها الرواية والفكر، ولطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها " ورفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام".

وهكذا تحدد مفهوم البيان لدى عبد القاهر، ولم يعد مجرد وسيلة من وسائل التعبير أو الدلالة، وإنما صار علما مستقلا، له ميدانه ومزيته وعلماؤه المتخصصون الذين أوتوا من الذوق الفني ما يؤهلهم لتأمل أساليبه والكشف عن أسراره، غير أن هذا المعنى كانت دائرته أوسع مما صار إليه لدى المتأخرين الذين فرقوا بين علوم البلاغة

الثلاثة، ذلك أن المباحث التي يعني بها عالم البيان – في نظر عبد القاهر – هي كل مباحث البلاغة.

ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ:

اتخذ مفهوم لفظة " البيان " لدى " ابن الأثير " دلالة واسعة حيث جعل موضوعه الفصاحة والبلاغة، وجعل دلالته على هيئة مخصوصة من الحسن وراء النحو والإعراب، واشترط له الذوق المستقيم والطبع السليم، واتساع المعرفة .

قال ابن الأثير في ذلك : " و بالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون و أن يتعلق بكل علم من العلوم"[١].

كما قال موضحا وجهة نظره في موضوع " علم البيان " وصلته بعلم النحو : " موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة " وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ".

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر : ٦ و ما بعدها . تحقيق الشيخ : محيى الدين ط ١٩٣٩ م .

ومعنى ذلك أن لفظة " البيان" ذات دلالة عامة عنده ، فالفصاحة والبلاغة هما موضوع هذا العلم ، ووظيفة عالم البيان هى النظر فى الدلالة الفنية للألفاظ على المعانى .

وهكذا شملت هذه الدلالة دائرة متسعة شاملة جميع المباحث البلاغية، كما هو الحال عند عبد القاهر .

البيان عند السكاكى ت ٦٢٦ هـ :

استقلت لفظة البيان عند السكاكى بدلالتها على أحد فروع علم البلاغة الثلاثة ؛ فقد حدد السكاكى هذه الدلالة ، ووضع القواعد المنطقية للبلاغة ، وقسمها إلى المعانى والبيان ، وألحق بهما المحسنات البديعية .

وهو الذى عرف علم البيان – كما سيرد إيضاحه – بقوله : " هو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه " .

كما أنه أشار إلى أن علمى المعانى والبيان هامان فى دراسة معانى القرآن الكريم ، فقال : " إن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل " [(١)] .

---

(١) السكاكى : مفتاح العلوم : ٧٠ .

أما الخطيب القزويني ت ٧٣٩ هـ :

فقد لخص " مفتاح " السكاكى فى كتابه " تلخيص المفتاح " وألف كتاب " الإيضاح " الذى يعد بمثابة الشرح للتلخيص .

ولقد " هذب كثيراً فى مفتاح السكاكى، فقدم فى مباحثه وأخر ، وزاد عليه ما تجب زيادته من كتب البلاغة ، وكان أسلوبه فيه أوضح من أسلوب السكاكى ، ولكنه جعله أسلوبا تقريريا لا يعنى إلا بجمع القواعد فى أوجز لفظ ، حتى أسرف فى الإيجاز إسراف عبد القاهر فى الإطناب ، وجعل من تلخيصه متناً يحتاج إلى شروح وحواش وتقارير، ولكن عيبه هذا كان موضع تقدير المتأخرين وإعجابهم "[1] .

" فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضاً بحاجته إلى شرح ، فوضع كتابه " الإيضاح " كشرح له ، يجرى على ترتيبه فى إطناب يختصره أحياناً من كتابى عبد القاهر ، وأحياناً من كتاب السكاكى مع شىء من التهذيب فيه ، ومع كثير من النقد الذى يفصله أحياناً ، ويرمز إليه أحياناً بقوله : وفيه نظر، وبهذا جاء الإيضاح وسطاً بين إيجاز التلخيص وإسهاب عبد القاهر ، وكان هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة .

ولكنه لم يرزق من الحظوة عند المتأخرين ما رزق التلخيص ، لأنهم شغفوا بالمتون حفظاً وشرحاً ، وقد نظروا إلى التلخيص على أنه

---

(١) انظر مقدمة كتاب بغية الإيضاح .

متن من المتون ، فشغفوا بحفظه وشرحه ، وكان من السابقين إلى شرحه " سعد الدين التفتازانى " ... فوضع له شرحاً مطولاً سماه "المطول " وشرحا مختصراً سماه " المختصر ... " [1].

" ثم تهافت المتأخرون من علماء البلاغة على شرحي سعد الدين على التلخيص يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية ... ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير " [2].

وهكذا يمكن القول بأن مفهوم البيان ظل يتطور عبر الدراسات البلاغية على مر العصور حتى استقرت دلالته واتضحت أقسامه شأنه فى ذلك شأن غيره من المصطلحات التى تنتقل من العموم إلى الخصوص ، ومن الإطلاق إلى التقييد وفقاً لتطور الدراسات والجهود العلمية المتتابعة

(١،٢) نفسه .

ثانيا: علم البيان لغة وإصلاحاً

تدل كلمة " البيان " لغة على الانكشاف والوضوح ، يقال : بان الشيء يبين بياناً بمعنى اتضح ، فهو بين ، وأبان الشيء فهو مبين ، وأبنته أنا ، أى أوضحته ، واستبان الشيء ظهر .

واستبنته أنا : عرفته ، والتبيين الإيضاح ، قال الله تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .

كما تدل كلمة البيان على الفصاحة فيقال : محمد أبين من على أى أفصح منه وأوضح بياناً .

ووردت فى القرآن الكريم إشارات إلى البيان بمعناه اللغوى ، كما اتضح فى الآية المذكورة سالفاً ، وكما يتضح فى قوله تعالى:{هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} أى هذا إيضاح .

وقوله تعالى : {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

أى : علمه المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير (1) .

كما وردت فى الحديث النبوى الشريف بالمعنى اللغوى أيضاً ، ومن ذلك قوله ﷺ : " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة " والبيان هنا بمعنى إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، وهو من الفهم

---

(1) الكشاف : الزمخشرى ٤ : ٣٥٣ مطبعة الاستقامة .

وذكاء القلب وقوة الحجة مع اللسن ، وشبه البيان بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له .

أما في الاصطلاح فهو كما سلف الذكر : "**علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه**" .

فمثال إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، في باب الكناية أن يقال في وصف زيد بالجود مثلاً : زيد مهزول الفصيل ، وزيد جبان الكلب ، وزيد كثير الرماد . فهذه التراكيب تفيد وصفه بالجود على طريق الكناية . وهي مختلفة وضوحاً وكثرة الرماد أوضحها ، فيخاطب به عند المناسبة كأن يكون المخاطب لا يفهم بغير ذلك .

ومثال إيراده بطرق مختلفة في باب الاستعارة أن يقال مثلاً في وصفه بالجود : رأيت بحراً في الدار ، وطم زيد بالإنعام جميع الأنام ، ولجة زيد تتلاطم أمواجها ، وأوضح هذه الطرق الأول وأخفاها الوسط. ومثال إيراده في التشبيه أن يقال : زيد كالبحر في السخاء ، وزيد بحر ، وأظهرها ما صرح فيه بالوجه ، وأخفاها ما حذف فيه الوجه والأداة معاً .

فيخاطب بكل من هذه الأوجه في هذه الأبواب بما يناسب المقام من الخفاء والوضوح ويعرف ذلك بهذا الفن [1].

---

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي : شروح التلخيص:٣ :٢٦١

الفصل الأول

التشـــــــبيه

"الفصل الأول"

التشـــــبيـه

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى[1] . ومعناه – لغة – التمثيل ، وهو مصدر مشتق من الفعل " شبه بتضعيف الباء ، يقال : شبهت هذا بهذا تشبيهاً ، أى مثلته به " .

والتشبيه فى اصطلاح البلاغيين له أكثر من تعريف ، وجميع هذه التعريفات لا تخرج فى جوهرها عن المعنى العام الذى مر ذكره .

فابن رشيق – مثلاً – يعرفه بقوله : " التشبيه صفة الشىء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه . ألا ترى أن قولهم : " خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه " [2] .

وأبو هلال العسكرى يعرفه بقوله : " التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أو لم ينب ، وقد جاء فى الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه ، وذلك قولك :" زيد

---

(١) بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى : ٣ : ٦ ، ٧ .
(٢) العمدة : إبن رشيق : ١ : ٢٥٦ .

شديد كالأسد " فهذا القول هو الصواب فى العرف وداخل فى محمود المبالغة ، وإن لم يكن زيد فى شدته كالأسد على حقيقته " (١)

ويقول عبد القاهر الجرجانى:

" والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه ، والتشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً " (٢) .

أركان التشبيه

وللتشبيه أربعة أركان : المشبه ، والمشبه به " وهما طرفا التشبيه وأداة التشبيه الدالة عليه كالكاف ونحوها ، ووجه الشبه وهو المشترك الجامع بين الطرفين أى هو الصفة أو الصفات التى تجمع بينهما .

طرفا التشبيه

طرفا التشبيه هما المشبه والمشبه به، وهما ركناه الأساسان وبدونهما لا يكون تشبيه .

فأساس التشبيه أن يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد بها كل واحد منهما .

---

(١) الصناعتين : أبو هلال العسكرى :٢٣٩

(٢) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى : ٧٥.

وهذا ما وضحه قدامة بن جعفر فى كتابه " نقد الشعر " [1] ، وهو يبنى ذلك على أساس أن الشىء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ؛ لأن الشيئين إذا تشابها من جميع الوجوه ، ولم يقع بينهما تغاير ألبتة اتحدا ، فصار الاثنان واحداً . وإذا كان الأمر كذلك ، فأحسن التشبيه عنده هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد .

ويقول السكاكى فى بيان العلاقة بين طرفى التشبيه : " لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين مشبهاً ومشبهاً به . واشتراكا بينهما من وجه وافترقا من آخر ، مثل أن يشتركا فى الحقيقة ويختلفا فى الصفة أو بالعكس ؛ فالأول كالإنسانين إذا اختلفا طولا وقصرا ، والثانى كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنساناً وفرساً . وإلا فأنت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد ، فيبطل التشبيه ، لأن تشبيه الشىء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركته المشبه به فى أمر ، والشىء لا يتصف بنفسه ، كما أن عدم الاشتراك فى وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما ، لرجوعه إلى طلب الوصف حيث لا وصف .

---

(١) نقد الشعر : قدامة بن جعفر : ٧٧ ، ٧٨ .

وينقسم التشبيه باعتبار الطرفين إلى أقسام هى :

(أ) أن يكون الطرفان حسيين ، أى يدركان بإحدى الحواس الخمس وهى : البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

ومن ذلك تشبيه الخد بالورد ، والقد بالرمح ، والفيل بالجبل فى المبصرات ، والصوت الضعيف بالهمس فى المسموعات ، والنكهة بالعنبر فى المشمومات ، والريق بالخمر فى المذوقات ، والجلد بالحرير فى الملموسات . ومن أمثلة ذلك فيما يدرك بالبصر قوله تعالى:{ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } (١) ، وقوله جل شأنه:{ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ } (٢) ، وقوله تعالى :{ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} (٣).

وما يدرك بالسمع مثل : صوت كأغاريد البلابل .

وما يدرك باللمس مثل :

لها نشر مثل الحرير ومنطـق * رخيم الحواشى لا هراء ولانزر(٤)

(ب) أن يكون الطرفان عقليين : أى لا يدرك واحد منهما بالحس بل بالعقل، كتشبيه العلم بالحياة والجهل بالموت ، فقد شبه هنا معقول بمعقول ، أى أن كلا منهما لايدرك إلا بالعقل.

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ .
(٢) سورة الرحمن : الآية ٢٤.
(٣) والجامع بينهما هنا البياض والحمرة .
(٤) رخيم الحواشى : فى أطرافه لين وتكسر ، والهراء بضم الهاء الكثير الفاسد ، والنزر القليل .

ويدخل البلاغيون فى العقلي ما يسمونه " الوهمى " وهو ماليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك لم يكن مدركاً إلا بها ، كما فى قوله تعالى فى شجرة الزقوم : " طلعها كأنه رءوس الشياطين " .

(جـ) أن يكون الطرفان مختلفين بأن يكون أحدهما عقلياً والآخر حسياً، كتشبيه المنية بالسبع ، والمعقول هو المشبه ، وكتشبيه العطر بالخلق الكريم، والمعقول هو المشبه به .

والتشبيه الحسى الذى يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس يدخل فيه أو يلحق به التشبيه " الخيالى " والتشبيه الخيالى هو المركب من أمور كل واحد منها موجود يدرك بالحس ، لكن هيئته التركيبية ليس لها وجود حقيقى فى عالم الواقع وإنما لها وجود متخيل أو خيالى .

ولكن لأن أجزاء التشبيه الخيالى موجودة تدرك بالحس ألحق بالتشبيه الحسى لاشتراك الحس والخيال فى أن المدرك بهما صورة لا معنى ، وذلك كقول الشاعر :

وكأنّ محمرّ الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد

أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد [1] .

---

(١) الشقيق ورد أحمر فى وسطه سواد ينبت فى الجبال ، تصوب : مال إلى أسفل، تصعد مال إلى أعلى .

فالهيئة التركيبية التى قصد التشبيه بها هنا ، وهى نشر أعلام من الياقوت على رماح من الزبرجد لم تشاهد قط لعدم وجودها فى عالم الحس والواقع ، ولكن العناصر التى تألفت منها هذه الصورة المتخيلة من الأعلام والياقوت والرماح والزبرجد موجودة فى عالم الواقع وتدرك بالحس .

أداة التشبيه

أدوات التشبيه هى تلك الأدوات التى تدل على معنى المشابهة أو المماثلة وهى : الكاف ، وكأن ، ومثل، وما فى معناها كما سيرد بيانه .

وهذه الأدوات حرفان ، وأسماء ، وأفعال ؛ أما الحرفان فهما :

(١) الكاف : وهى الأصل لبساطتها ، والأصل فيها أن يليها المشبه به كقوله تعالى:{ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ } ، وكقوله ﷺ: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " .

وقد تدخل الكاف على كلمة داخلة فى المشبه به كقوله تعالى : {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}(١) أى : بين لهم صفة الحياة الدنيا ، وليس المراد تشبيه حال الحياة بماء موصوف بما ذكر ، ولا بمفرد آخر مقدر فى الكلام لأن تكلف التقدير إنما يكون لموجب ، وقد أغنت - هنا - الحال المفهومة من مجموع اللفظ عن التقدير ، وهى كون النبات بعد نزول المطر من السماء شديد الاخضرار والنضارة ، ثم بأن ذلك الاخضرار ييبس فتطيره الرياح ، كأن لم يكن ، وهذه الحال هى التى شبهت بها حال

---

(١) سورة الكهف: الآية: ٤٥ .

الدنيا فى بهجتها ، وإمالة القلوب إليها ، ثم يعقب ذلك الهلاك ، ووجه الشبه هو هيئة وجود تلف واندثار إثر الإعجاب والانتفاع ، فالكاف غير داخلة على المشبه به كلية .

وربما دخلت على شيء آخر يمثل قيدا فى المشبه به ، كقول الله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ}(١) ، فالمراد : كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصار الله وقت قول عيسى من أنصارى ، وعلى ظاهر التعبير المشبه به (قول عيسى) وهو ظرف للمشبه به .

(٢) كأن : ويليها المشبه ، وهى للتشبيه على الإطلاق ، وهذا هو المشهور ، وذهب جماعة من النحاة إلى أنها إذا كان خبرها اسماً جامداً فهى للتشبيه ، وإن كان مشتقاً فهى للشك بمنزلة ظننت وتوهمت، على معنى أنك تشك فى قيام الخبر بالمبتدأ فى نحو قولك : كأن أخاك قادم .

وأما الأسماء فهى : مثل ، وشبه ، ومشبه، ومحاك، ومماثل ... إلى آخر ذلك .

ومن أمثلة ذلك قول شوقى فى وصف قصور السلطان عبد الحميد بعد سقوطه :

---

(١) سورة الصف: الآية: ١٤ .

أين الأوانس في ذراها * من ملائكة وحور
الناعمات الطيبات العرف أمثال الزهور

وأما الأفعال فهي نوعان :

(أ) أفعال تفيد التشبيه صراحة ككل فعل اشتق من مادة التشبيه ، وما أشبهها ، كأشبه وشابه وحكى وماثل وضارع وضاهى .

(ب) أفعال تجيء بعد تحقيق التشبيه ، وهي تدل على قرب [1] الشبه أو بعده بحسب معناها ، وذلك كعلمت وخلت وحسبت ، كقول بشار :

حوراء إن نظرت إليك * سقتك بالعينين خمرا
وتخال ما جمعت عليه * ثيابها ذهبا وعطرا

فقد شبه جسمها الذكي الرائحة بالذهب والعطر ، وهذا التشبيه مستفاد من جعل الذهب خبرا عن (ما) قبل دخول الناسخ ، كأنه قال جسمها ذهب وعطر ، فلم تفد (تخال) إلا بعد التشبيه

أقسام التشبيه باعتبار الأداة

والبلاغيون يقسمون التشبيه باعتبار الأداة إلى مرسل ومؤكد ، والمرسل هو الذي ذكرت فيه الأداة ، والمؤكد ما حذفت منه الأداة .

ومن المؤكد ما أضيف فيه المشبه به إلى المشبه كقول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى * ذهب الأصيل على لجين الماء

(١) فسر السعد القرب بالتحقق ، وكمال المشابهة . التلخيص حـ ٣٨٩/٣ .

وجه الشبه

وهو المعنى الذى قصد اشتراك الطرفين فيه تحقيقاً أو تخييلاً .

فالأول : نحو تشبيه الشعر بالليل ، ووجه الشبه السواد فى كل منهما ، وكتشبيه النشر بالمسك ، ووجه الشبه طيب الرائحة فى كل منهما ، فوجه الشبه هنا مأخوذ من صفة موجودة فى كل واحد من الطرفين ، وذلك أن السواد ملاحظ فى الشعر والليل ، والطيب مراعى فى رائحتها وفى رائحة المسك ، وكلاهما على حقيقته موجود فى الإنسان وفيها .

وكذلك إذا شبه الرجل بالأسد ، فالوصف الجامع بينهما الشجاعة وهى على حقيقتها موجودة فى الإنسان وموجودة فى الأسد ، وإنما يقع الفرق بينه وبين السبع الذى شبه به من جهة القوة والضعف والزيادة والنقصان .

والأخر : مالا يكون فى أحد الطرفين إلا على سبيل التخييل بأن تجعل المخيلة ماليس بمحقق محققاً ، نحو تشبيه السيرة بالمسك ، والأخلاق بالعنبر ؛ فقد شاع وصف كل من السيرة والأخلاق بالطيب توسعاً ، حتى تخيل أنهما من الأجناس ذات الرائحة الطيبة ، فشبهوهما بكل من المسك والعنبر فى الطيب.

ومن هذا القبيل تشبيه ما كان باطلاً بأنه مظلم أو أسود ، كأن يقال " شاهدت سواد الكفر " أو " ظلمة الجهل " من جبين فلان .

ووجه الشبه قد يكون :

واحداً حسياً كتشبيه الشيء الأملس بالحرير ، أو واحداً عقلياً كالهداية في قول النبى - ﷺ - : " أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " ، أو متعدداً كقول أبى بكر الخالدى :

يا شبيه البدر حسناً * وضياء ومنالا
وشبيه الغصن ليناً * وقواماً واعتدالا
أنت مثل الورد لوناً * ونسيماً وملالا
زارنا حتى إذا ما * سرنا بالقرب زالا

وضابطه أن ينظر إلى عدة صفات اشترك فيها الطرفان ليكون كل منها وجه شبه ، بحيث لايرتبط بعضها ببعض ، فلو حذف بعضها دون بعض ، أو قدم بعضها على بعض ما اختل التشبيه .

والمتعدد الحسى نحو : هذه الفاكهة مثل تلك فى لونها وشكلها وريحها وحلاوتها .

والمتعدد العقلى نحو : زيد كعمرو فى شجاعته وحلمه وإيمانه .

والمتعدد المختلف نحو : زيد كعمرو فى طوله ولونه وشجاعته وعلمه.

أقسام التشبيه باعتبار الوجه

وينقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى : تشبيه مجمل ، وتشبيه مفصل.

فالتشبيه المجمل : هو الذى لم يذكر وجهه ، ومنه ما هو ظاهر ، كما فى : زيد أسد ، إذ لا يخفى على أحد أن المراد به التشبيه فى الشجاعة دون غيرها . ومنه ماهو خفى لايدركه إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأل عنهم : " هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها " أى لتناسب أصولهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعيين بعضهم فاضلاً وبعضهم أفضل منه ، كما أن الجلقة المفرغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً .

والتشبيه المفصل : هو ما ذكر فيه الوجه كالأبيات السابقة:

ياشبيه البدر حسناً * وضياء ومنالا
وشبيه الغصن ليناً * وقواماً واعتدالا
أنت مثل الورد لوناً * ونسيماً وملالا
زارنا حتى إذا ما * سرنا بالقرب زالا

وقد يستغنى عن ذكره بذكر مايستلزمه أى بذكر شىء مكان وجه الشبه ، يكون وجه الشبه تابعاً له لازماً فى الجملة ، كقولهم فى الكلام الفصيح : هو كالعسل فى الحلاوة ؛ فإن الجامع فيه لازم الحلاوة ، وهو ميل الطبع ، لأنه المشترك بين العسل والكلام لا الحلاوة التى هى من خواص المطعومات .

تشبيه التمثيل

خص جمهور البلاغيين التشبيه الذى يكون فيه وجه الشبه مركباً باسم (التمثيل) ، وقد عرفت من قبل أن التشبيه أعم والتمثيل أخص ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا.

ومن أمثلة التمثيل قول النبى - ﷺ - : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " فقد شبه المؤمنين فى تعاونهم وأن مايصيب أحدهم يشعر به الجميع بالجسد إذا مرض منه عضو تألمت بقية الأعضاء ، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

فتشبيه التمثيل هو ماكان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد (امرين او أمور).

هذا هو مذهب جمهور البلاغيين ، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصورة ، سواء أكانت العناصر التى تتألف منها صورته أو تركيبه حسية أم معنوية ، وكلما كانت عناصر الصورة أو المركب أكثر كان التشبيه أبلغ .

ومنه قوله تعالى :{ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }.

فالمشبه حال من ينفق قليلاً فى سبيل الله ثم يلقى عليه جزاء جزيلا، والمشبه به حال من بذر حبة فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ووجه الشبه هو صورة من يعمل قليلاً فيجنى من ثمار عمله كثيراً.

أما وجه الشبه عندما يكون غير تمثيل فهو عكس ذلك ، أى عندما لا يكون صورة منتزعة من متعدد ، وبعبارة أخرى هو ما يكون غير مركب أى مفردا ، وكونه مفردا لا يمنع من تعدد الصفات المشتركة بين طرفى التشبيه .

ومن أمثلة التشبيه عندما يكون وجه الشبه فيه غير تمثيل قول البحترى:

هو بحر السماح والجود فازدد * منه قربا تزدد من الفقر بعدا

فالمشبه هنا هو الممدوح والمشبه به هو البحر ، ووجه الشبه الذى يشترك فيه الممدوح والبحر هو صفة الجود .

وكذلك قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

فالمشبه هو الليل فى ظلامه وهوله ، والمشبه به هو موج البحر، وأن هذا الليل أرخى عليه حجبه وسدوله مصحوبة بكل أنواع الهموم والأحزان ليختبر صبره واحتماله ، ووجه الشبه الذى يشترك فيه الليل وموج البحر صفتان هما : الظلمة والروعة .

ومنه أيضاً ما يكون فيه وجه الشبه متعدداً كالأبيات التى مر ذكرها:

يا شبيه البدر حسناً	*	وضياء ومنالا
وشبيه الغصن ليناً	*	وقواماً واعتدالا
أنت مثل الورد لوناً	*	ونسيماً وملالا
زارنا حتى إذا ما	*	سرنا بالقرب زالا

فالمشبه فيها هو الحبيب ، والمشبه به البدر مرة ، والغصن مرة ثانية ، والورد مرة ثالثة ، ووجه الشبه الذى يشترك فيه الطرفان صفات متعددة لا يرتبط بعضها ببعض ، وكل صفة منها يمكن الاكتفاء بها كوجه شبه ، بمعنى أنه لو حذف بعضها دون بعض أو قدم بعضها على بعض ما اختل التشبيه .

فوجه الشبه فى تشبيه غير التمثيل إنما هو وجه غير مركب أو غير صورة ، أو هو ما كان مفرداً مهما تعددت الصفات التى يشترك

فيها الطرفان ، وهذه الصفات المشتركة - إن وجدت - لا يشترط فيها نظام أو ترتيب معين ، بمعنى أنه يجوز فيها التقديم أو التأخير ، كما يجوز الإبقاء عليها أو على بعضها كوجه شبه من غير إخلال بالتشبيه.

التشبيه المقلوب

الأصل فى التشبيه أن يشبه الشىء بما هو أبين منه وأوضح ، أو بما هو أقبح ، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى ، وفى هذا مبالغة ، ولكن الأدباء قد يجنح بهم الخيال فيعمدون إلى مبالغة أقوى ، فيجعلون المشبه مشبهاً به ، مُدّعين أنه أتم وأقوى فى الوجه حتى صار أصلاً يقاس عليه ، ويشبه به ، وهذا موضع من علم البيان حسن الموقع ، لطيف المأخذ ، والفائدة فيه عائدة إلى المشبه به الذى كان بحسب الوضع الطبيعى مشبهاً .

ومن أمثله قول محمد بن وهيب يمدح الخليفة المأمون :

وبدا الصباح كأن غرته * وجه الخليفة حين يمتدح

فقد جعل وجه الخليفة أتم فى النور والضياء ، وأشهر به من الصباح ، فاستقام له أن يجعل الصباح فرعا ، ووجه الخليفة أصلاً .

وقد عرض " ابن الأثير " فى كتابه " المثل السائر " لهذا النوع من التشبيه ، وسماه " الطرد والعكس " فقال : " واعلم أن من التشبيه ضرباً يسمى الطرد والعكس ، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً ، والمشبه مشبهاً به ، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول .

ومنه - بالإضافة إلى ما سبق - قول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها * وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول عبد الله بن المعتز فى تشبيه الهلال :

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا * مثل القلامة قد قدت من الظفر

وقول ابن المعتز أيضاً :

والصبح فى طرّة ليل مسفر * كأنه غُرّةُ مهر أشقر

فالمشبه فى البيت (الأخير) هو الصبح والمشبه به هو غرة مهر أشقر ، وهذا تشبيه مقلوب ، لأن العادة فى عرف الأدباء أن تشبه غرة المهر بالصبح ، لأن وجه الشبه وهو البياض أقوى فى الصبح منه فى المهر ، ولكن الشاعر عدل عن المألوف ، وقلب التشبيه للمبالغة ، بادعاء أن وجه الشبه أقوى فى غرة المهر منه فى الصبح .

ومنه قول الشاعر :

أحن لهم ودونهم فلاة * كأن فسيحها صدر الحلم

فالشاعر هنا يشبه فسيح الفلاة بصدر الحليم ، على غير المعهود ، إذ المعهود أن يشبه صدر الحليم بالفلاة ، ولكن - رغبة فى المبالغة - ادعى أن صدر الحليم أفسح من الصحراء .

محاسن هذا النوع و شرطه

والشرط فى استعمال التشبيه المقلوب ألا يرد إلا فى المعهود الذى جرى على ألسنة العرب ، وجرى عليه العرف لديهم ، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب و الانعكاس .

و علـــى هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب و يقبل ، أما إذا ورد فى غير المعهود المألوف فإنه يكون معيبا لأن المبالغة فيه تصيبه بــالغموض ، وتؤدى إلى التداخل بين طرفيه فلا يعرف أيهما المشبه ، و أيهما المشبه به .

و يقرب من هذا النوع ما أطلق عليه " تشبيه التفضيل " وهو أن يشبه الشىء بشىء لفظا أو تقديرا ، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أن المشبه أفضل من المشبه به .

ومن ذلك قول الشاعر :

حسبت جماله بدرا منيرا * وأين البدر من ذاك الجمال ؟

وقول آخر :

من قاس جدواك يوما * بالسحب أخطأ مدحك

السحب تعطى و تبكى * وأنت تعطى وتضحك

التشبيه الضمنى

التشبيه الضمنى تشبيه لا يقع فيه طرفا التشبيه على صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان فى التركيب . فهو نوع من الأساليب التى توحى بالتشبيه من غير أن يصرح به فى صورة من صور التشبيه المعروفة .

ومن بواعث ذلك التفنن فى الأساليب ، والنزوع إلى الابتكار والتجديد، وإقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبه ، والرغبة فى إخفاء معالم التشبيه لأنه كلما خفى ودق كان أبلغ فى النفس.

ومنه قول أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم * وفى الليلة الظلماء يُفتقد البدر

فهو هنا يريد أن يقول : إن قومه سيذكرونه عند اشتداد الخطوب والأهوال عليهم و يطلبونه فلا يجدونه ، ولا عجب فى ذلك لأن البدر يفتقد و يطلب عند اشتداد الظلام .

فهذا الكلام يوحى بأنه تضمن تشبيها غير مصرح به ، فالشاعر يشبه ضمنا حاله و قد ذكره قومه وطلبوه فلم يجدوه عندما ألمت بهم الخطوب بحال البدر يطلب عند اشتداد الظلام . فهو لم يصرح بهذا

التشبيه و إنما أورده فى جملة مستقلة وضمنه هذا المعنى فى صورة برهان .

ومنه قول البحتري :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم * وللسيف حد حين يرنو ورونق

وقول ابن الرومي :

قد يشيب الفتى و ليس عجيبا * أن يُرى النَوْرُ في القضيب الرطيب

وقول أبى تمام :

لا تنكري عَطل الكريم من الغنى * السيل حرب للمكان العالي

وقول المتنبي :

وما أنا منهم بالعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرّغام

وقوله :

ومن الخير بطء سَيْبك عني * أسرع السحب في المسير الجَهام

وقول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليَبَس

وقول ابن الرومي :

وبلاه إن نظرت وإن هي أعرضت * وقع السهام ونزعهن أليم

التشبيه البليغ

إذا ما حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهذا هو " التشبيه البليغ " وهو أعلى مراتب التشبيه فى البلاغة وقوة المبالغة ، لما فيه من ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به ، ولما فيه من الإيجاز الناشيء عن حذف الأداة والوجه معاً ، هذا الإيجاز الذي يجعل نفس السامع تذهب فيه كل مذهب ، ويوحى لها بصور شتى من وجوه التشبيه كقول أبى فراس :

إذا نلت منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب

تأثير التشبيه

هذا المبحث البلاغى النقدى من أهم مباحث دراسة التشبيه التى عرض لها القزوينى فى كتابه " الإيضاح " .

وهو مبحث يوضح أسرار تأثير التشبيه فى النفس والعقل عن طريق إيضاح المعانى ومضاعفة قواها .

كما أنه بحث مهم يضع التشبيه موضعه الواضح في ميزان البلاغة والنقد .

يقول القزوينى فى ذلك :

" فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدرة وفخامة أمره فى فن البلاغة ، وأن تعقيب المعانى به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها فى تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كان أو ذما أو افتخارا أو غير ذلك . وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى قول البحترى:

دانٍ على أيدى العفاة وشاسع * عن كل ندّ فى الندى وضريب[1]

كالبدر أفرط فى العلو وضوءه * للعصبة السارين جدُّ قريب[2]

وهذا من تشبيه التمثيل .

أو قول الآخر :

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً * رأيت صورته من أقبح الصور

وهَبْه كالشمس فى حُسْنٍ ألم ترنا * نَفِرُّ منها إذا مالت إلى الضرر

فشبه حال من حسنت صورته وقَبُح فعله فكرهه الناس بحال الشمس نفرّ منها إذا اشتد حرّها .

والجامع أن كلاً يكره لأذاه وإن حسُن منظره . وهو تشبيه تمثيل كسابقه.

أو قول ابن الرومي :

بَذَلَ الوعدَ للأخلاء سمجاً * وأبى بعد ذاك بَذْلَ العطاء

فغدا كالخلاف يُورِق للعين * ويأبى الإثمار كل الإباء[3]

وهو أيضاً من تشبيه التمثيل .

---

(١) العفاة : جمع عافٍ وهو طالب الفضل أو الرزق ، والند المثيل والنظير وعطف ضريب عليه عطف تفسير.

٢) السارون : السائرون ليلاً . جد قريب : صفة لمحذوف أى : قريب جداً شبه هيئة رفعة الممدوح مع قرب نفعه للسائلين بهيئة ارتفاع البدر مع قرب ضوئه والانتفاع به ، والجامع : الهيئة الحاصلة من بُعد المنال مع قرب النوال .

(٣) الخلاف صنف من الصفصاف ، سمى خلافا لأن السيل يأتى به فينبت من خلاف أصله

شبه حال مَن وعد بقضاء حاجة ثم أخلف وعده بحال الخِلاف في ذلك ، والجامع ما في كل من اليأس بعد الطمع . وهو تشبيه تمثيل كذلك .

أو قول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حَسُود

لولا أشتعالُ النار فيما جاورت * ما كان يُعرف طيبُ عَرْف العود[1]

وهذا من التشبيه الضمني كما هو واضح .

والمراد تشبيه هيئه الفضيلة مع الحسود بهيئة العود مع النار ، والجامع: ما في كل من ترتب النفع على محاولة الضرر .

أو قوله أيضاً :

وطول مُقام المرء في الحي مُخْلِقٌ * لديباجتيه فاغترب تتجدّد[2]

فإني رأيت الشمس زيدت محبة * إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

فالمراد تشبيه هيئة المرء في اكتسابه المحبة بالاغتراب بهيئة الشمس في اكتسابها المحبة بطلوعها وغروبها[3] .

ويعلق القزويني على ذلك كله موضحاً تأثير التشبيه وقيمته في بيان المعاني فيقول :

---

(١) طويت : اخفيت . أتاح : هيأ . العرف : الرائحة ، العود : ضرب من الطيب يتبخر به.
(٢) المخلق : المبلى . الديباجة : الوجه ، المراد صفحتاه (ديباجتيه) والسرمد : الدائم .
(٣) أنظر بغية الإيضاح : جـ٣ : ص ٩ وما قبلها .

" وقس حالك وأنت فى البيت الأول ولم تنته إلى الثانى على حالك وأنت قد انتهيت إليه ووقفت عليه ، تعلم بُعْد ما بين حالتيك فى تمكن المعنى لديك " [1] .

ثم يمضى قائلاً :

وكذا تعهد الفرق بين أن تقول : " الدنيا لا تدوم " وتسكت ، وأنت تذكر عقيبه ما روى من قول النبى - ﷺ - أنه قال :

" مَنْ فى الدنيا ضيف ، وما فى يده عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة " أو تنشد قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع * ولابد يوماً أن تُردّ الودائع

وبين أن تقول : أرى قوماً لهم منظر وليس لهم مخبر ، وتقطع الكلام ، وأن تتبعه نحو قول الشاعر :

فى شجر السّرو منهم مثل * له رُوَاء وما له ثمر [2]

وانظر فى جميع ذلك إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه فى الحالة الأولى.

---

(١) السابق .

(٢) الرُّوَاء : المنظر الحسن ، والمراد أنهم مثله فى حسن المنظر وقبح المخبر .

أسباب تأثير التشبيه [1]

ولذلك أسباب : منها ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفيّ إلى جليّ ، ... أو مما تعلمه إلى ما هى به أعلم ، كالأنتقال من المعقول إلى المحسوس ، فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ.

نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالقصر : يوم كأقصر ما يتصوّر ، فلا يحد السامع له من الأنس ما يجده لنحو قولهم : أيام كأباهيم القطا[2]، وقول الشاعر :

ظللنا عند باب أبى نُعَيْم * بيومٍ مثل سالفة الذباب[3]

وكذا تقول ـ فلان إذا هَمّ بالشىء لم يَزُل عن ذُكره ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه فيه ، ولم يشغله عنه شىء ـ فلا يصادف السامع له أرْيحيّة ، حتى إذا قلت :

إذا هَمّ ألقى بين عينيه عزمه[4]

امتلأت نفسه سروراً وأدركته هِزة لا يمكن دفعها عنه[5]

---

(١) بغية الإيضاح : جـ٣ : ١٠
(٢) الأباهيم : جمع إبهام وهو الإصبع المعروفة .
(٣) سالفة الذباب : مقدم عنقه . انظرى : بغية الإيضاح : ٣ : ١١
(٤) الشاهد فى تشبيه العزم بشىء محسوس يُلقى أمام العينين بجامع العناية التامة بكل ، ولكن هذا من الاستعارة لحذف المشبه به وإثبات لازمه للمشبه .
(٥) انظر : بغية الإيضاح : ٣ : ١١ .

ومن فضائل التشبيه أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ، (وهذا سبب من أسباب تأثير التشبيه وهو جمعه بين الأمور المتنافرة والمختلفة).

نحو أن يعطيك من الزند بإيرانه الجواد والذكى والنُجح فى الأمور ، وبإصلاده شبه البخيل والبليد والخيبة فى السعى ، ومن القمر الكمال عن النقصان ، كما قال أبو تمام :

لهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى و صباهما * حِلماً وتلك الأريَحيّة نائلا
ولأعقب النجم المُرذّ بديمةٍ * ولعاد ذاك الطلّ جَوْداً وابلا
إن الهلال إذا رأيت نموّه * أيقنت أن سيصير بدراً كاملا[1] .

(١) اللهف : الحسرة ، والشواهد : أمارات الفضائل فيهما ، وكانا ولدين لعبد الله بن طاهر ماتا فى يوم واحد ، والشمائل السجايا .
الحجى : العقل ، والصبا : الفتوّه ، و الأريَحيّة خصلة تجعل صاحبها يرتاح إلى الأفعال الحميدة ، والنائل العطاء ، ويروى :وصباهما كرما ، ولكنه يتكرر مع قوله : نائلا.
المُرذّ: المراد اسم فاعل من أرذّ بمعنى أمطر رذاذا وهو المطر الخفيف ، والديمة : المطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق ، والطلّ : المطر الضعيف ، والجَوْد : المطر الغزير .
(" إن الهلال ...." البيت ") : هذا البيت محل الشاهد ، لأنه يشبه ما كانا سيصيران إليه بحال الهلال فيما يصير إليه من الكمال بعد النقصان .

أغراض التشبيه و محاسنه

التشبيه أسلوب بلاغي يحقق غايات كثيرة إذا ما أجيد استخدامه وأحسن المتكلمون التعبير به و اختيار عناصره .

فإذا شبه شيء حسن بشيء حسن ، لابد أن يكون المشبه به أحسن من المشبه ، و إذا شبه القبيح بالقبيح فلابد أن يكون المشبه به أقبح .

والسبب في ذلك أن الأصل فى التشبيه أن يشبه الشىء بما هو أشد منه وأقوى فى صفته ، أو أكبر منه وأعظم بقصد المبالغة .

وإن قصد الإيضاح فينبغى أن يكون المشبه به أبين و أوضح .

وقد عرفت من قبل أن التشبيه إما أن يكون تشبيه معنى بمعنى ، أو صورة بصورة ، أو معنى بصورة أو صورة بمعنى ، و أبلغ هذه الأنواع تشبيه معنى بصورة ، و من أمثلته قول الله تعالى : " {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [1] " ، و سر بلاغته أنه يخرج المعنى الغامض إلى مجال التصوير الحسى المشاهد .

---

(١) سورة النور : الآية : ٣٩ .

ومن بلاغة التشبيه وحسنه أن يشبه الغائب الخفى غير المعتاد بالظاهر المعتاد ، وهذا يؤدى إلى الإيضاح و البيان ، ومن أمثلة ذلك قول النبى ﷺ : " كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ".[1]

ففى هذا الحديث إرشاد إلى عدم التعلق الشديد بالدنيا ، فإن الغريب لا ارتباط له ببلاد الغربة ، و ابن السبيل لا وجود له فى مكان إلا بمقدار العبور وقطع المسافة ، فهذا المعنى أظهره التشبيه أتم إظهار .

ومن بلاغة التشبيه المضمر الأداة قوة التصوير مع بيان المعنى بوضوح يمثل المعنى و يبرزه بدقه لا سبيل إليها إلا هو ، و مما يبين ذلك قول الله تعالى : {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا} ، فقد شبه - سبحانه و تعالى - الليل باللباس ، لأن الليل من شأنه أن يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدو ، أو ثباتا لعدو ، أو إخفاء مالا يحب الاطلاع عليه من أمره. وهذا من التشبيهات التى لم يأت بها إلا القرآن الكريم ، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختص به القرآن دون غيره من الكلام المنثور والمنظوم .

ومن مقاصد التشبيه إفادة المبالغة ، ولهذا قلما خلا تشبيه مصيب عن هذا القصد ، ولكن ينبغى ألا يؤدى الإغراق فى المبالغة إلى البعد بين المشبه والمشبه به أو إلى عدم الملاءمة بينهما و إلا ارتد التشبيه قبيحا .

---

(١) انظرى كتاب : أحاديث نبوية شريفة للأستاذ الدكتور: محمود فرج العقدة ، واقرأ شرحه بتدبر لتفهم أغراض التشبيه فى هذا الحديث النبوى الشريف الذى هو من جوامع الكلم .

رأى عبد القاهر الجرجانى فى وجه بلاغة التشبيه وحسنه

يرجع عبد القاهر الجرجانى تأثير التشبيه فى النفس إلى علل وأسباب :

أولها : أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشانه أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى مايعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس يَفضُل المستفاد من جهة النظر والفكر ... كما قالوا : " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين"، فالانتقال فى الشىء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

ثانيها : هو التماس شبه للشىء من غير جنسه وشكله ، لأن التشبيه لا يكون له موقع من السامعين ولا يهز ولا يحرك حتى يكون الشبه مقررا بين شيئين مختلفين فى الجنس ، كتشبيه العين بالنرجس ، وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم .

وفى ذلك يقول : " وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ".

ويوضح ذلك بقوله :

" إنك ترى بها ـ التشبيهات ـ الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض..." .

وكذلك قوله :

والتشبيه " يريك التئام الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ، كما يقال في الممدوح : هو حياة لأوليائه ، موت لأعدائه ، ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كقول الشاعر :

أنا نار في مرتقي نظر الحا * سد ماء جار مع الإخوان

وكما يجعل الشيء حلواً مراً ، وصاباً عسلاً ، وقبيحاً حسناً ، وأسود أبيض في حال (أي حال واحد) كقول الشاعر :

له منظر في العين أبيض ناصع * ولكنه في القلب أسود أسفع

(الأسفع المشرب بحمرة ، والاسم السفعة بضم السين) .

ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً، كقول البحتري:

دان على أيدي العفاة وشاسع * عن كل ند في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه * للعصبة السارين جد قريب [1]

وهكذا تتعدد محاسن التشبيه ووجوه بلاغته ويتخذ مكانه المرموق بين أساليب البيان العربي.

---

(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني : ١٠٢ : ١١٤ .

الفصل الثاني

دراسات تطبيقية على ما سبقت

دراسته

في باب " التشبيه "

دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسته في " باب التشبيه "

أولاً : دور التشبيه في بيان شأن الصلاة والمصلين "(١)

ورد التعبير القرآني في مجالات ذكر الصلاة مظهراً شأنها في كل حال بالكثير من وسائله البلاغية التي اتضحت فيما سبق من جوانب ، والتي سوف تتضح في الكثير من الجوانب الأخرى التي تمثل وجها من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم .

وحين وردت الصلاة في إطار التمثيل القرآني أفسح لها المجال الواحد ، لتتخذ منه بيانا جامعا لجوانبها الحسية الظاهرة في الهيئة المرئية للمصلين سجودا وركوعا ، والقوة المعنوية المتعلقة بالإيمان والعقيدة ، والأثر النفسي الذي تتركه في نفوس المؤمنين من اطمئنان وإعجاب ، والكافرين من تبرم وغيظ .

قال الله تعالى : {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (٢) .

---

(١) انظر : كتاب : من بلاغة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : فتحية محمود فرج العقدة : ٥٤ وما بعدها

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

فابستهل – سبحانه وتعالى – بذكر محمد – صلي الله عليه وسلم– وعطف عليه الذين معه ووضح – بأسلوب المقابلة – شدتهم في مجاهدة المعاندين وتراحمهم فيما بينهم . فمهد بهذا الثناء لما بعده .

ثم اتجه إلى بيان حال الصلاة موضحا بالفعل " تراهم " صورة حسية لحالهم " ركعا سجداً " في اجتماعهم مع الرسول – صلي الله عليه وسلم - ، مشيراً بذلك إلى " الدوام والثبات " [1] على ذلك مما يستفاد من ورودهما اسمين " والمراد تراهم مصلين ، والتعبير بالركوع والسجود مجاز مرسل "[2].

ثم بين حال رجائهم الملابس لحال صلاتهم في قوله تعالى : { يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا } وجعل لهم سمة تميزهم " تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ..... أو (هي) صفرة الوجه من خشية الله تعالى .. (أو كما قيل) استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل " [3] ، أو هي " النور يوم القيامة " [4] .

وبعد أن أشار بـ " ذلك " إلى بعد شأن ما تقدم وسموه وأخبر عنه بقوله " مثلهم " لما تشير إليه كلمة " مثل " من معني الوصف العجيب الذي يجري مجرى الأمثال بيانا لشأن تلك الصفات فيهم كذلك،

---

(١)روح المعاني : الألوسي : ٢٦ : ٢٨٣ . والشطء ما يخرج من النبات ويسمي فرخاً .
(٢) السابق : ٢٢٧ .
(٣) الكشاف : الزمخشري : ٣ : ٥٥٠ .
(٤) روح المعاني : الألوسي : ٢٦ : ٢٢٧ .

وبين كونه في التوراة ، ثم انتقل إلى الإنجيل بتكرار قوله تعالى "مثلهم" تأكيدا لغرابته وزيادة تقريرها " [1] ورد التشبيه الجامع لتتضح تلك الصفات المذكورة قبله مضافا إليها غيرها في صورة حسية معنوية واضحة الدلالة .

وهذا الانتقال له بلاغته في الكثير من الجوانب :

منها : أن الجوانب السابقة وردت في تعبير تام يشعر المتلقي أنه اكتمل في ذاته لتضمنه جوانب الوصف المعنوية من الشدة والرحمة ، والحسية من الركوع والسجود والسمات الظاهرة في الوجوه ، والإخبار عن ورود ذلك الثناء فيما سبق من الكتب السماوية وهو وصف جامع تام .

ومنها : ورود الانتقال إلى المشبه به لدى قوله تعالى : { كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ } في صورة الاستئناف البياني المناسب لقوله تعالى " مثل " لما ينشأ عن هذا اللفظ في الأذهان من رغبة في معرفة ما ينطوي عليه المثل من الغرابة والشأن .

ومنها : إخراج تلك الصفات التي جمعتها دلالة كلمة " مثل " وما ذكر تفصيلا قبلها في صورة مألوفة من الزرع الذي يخرج شطأه ، لما فيه من قوى النمو التي أخرجت منه غيره مما لا يضعفه بل يزيده قوة "فآزره " ، مما يناسب المشبه به من حال المصلين الذين يشار بذلك إلى وصفهم السابق . " أشداء " .

---

(١) نفسه .

ومنها : بيان كون هذه القوة المصورة في المشبه به في نماء وتصاعد ؛ دلت على ذلك الأفعال الماضية في تتابعها وترتب بعضها على بعض بالفاء { فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } ، في هذه السرعة من حال إلى ما فوقه ، بيانا لشأن الإسلام والمسلمين وما مروا به من مراحل .

ومنها : جمعه بين الأثر النفسي الناشئ عن صورة المشبه به والمشار به إلى المشبه في قوله تعالى { يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ } في إطار المقابلة ، وما تعلق بها من الكناية ، حيث خص الزراع" لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو أحرى أن يعجب غيرهم " (١) .

وفي ذلك بيان مفصل لما ورد قبله مجملا دالا على شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ورسالته وغايته في قوله تعالى : {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (٢) .

---

(١) السابق : ٢٧٨ .
(٢) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

ثانيا : دور التشبيه في بيان شأن جزاء الإنفاق في سبيل الله مجال

- **الإنفاق وصوره في السياق القرآني**

من مجالات أسلوب المقابلة في القرآن الكريم مجال " الإنفاق " [1] الذي تعددت صوره ومجالاته ، وورد ضمن أساليب كثيرة ، وسياقات تبرز دقائقه وغاياته وما يرتبط به من العمل والنية ، والقول والفعل ، وما يتصل به جميع ذلك من تأثير في النفوس ، ويترتب عليه من ثواب وعقاب .

وقد برز جانب كبير من بلاغة هذا الأسلوب بروزا واضحاً في سياق الأسلوب التشبيهي والتمثيلي .

ولقد اتسعت قضاياه ، وامتدت لتشمل الكثير من أبواب المعاملات الاجتماعية والاقتصادية ، وتعالج ما يتعلق بهما من جوانب ومشكلات معالجة واضحة نافذة إلى النفوس ، آخذة بالأيدي إلى ما فيه صلاحها .

وحين يلتقي طرفا المقابلة الأسلوبية بالسياق القرآني التمثيلي المتضمن علاقات الإنفاق بنية المنفق وقوله وعمله ، وأجره المضاعف وغير ذلك ، فإن أسلوب المقابلة يضع أمام الأعين والأنفس والآذان

---

(1) انظر : من بلاغة أسلوب المقابلة في القرآن الكريم : فتحية محمود فرج العقدة : ٣٧ وما بعدها .

والمشاعر صورة عميقة التأثير ، لا يكاد المتدبر يتأملها حتي يجد نفسه أمام أبواب من الإعجاز البلاغي الشامل لكل ما يدق على النظر إدراكه .

- الإنفاق في إطار الترغيب والترهيب :

قال الله تعالى : {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ

الفقرَ وَيَأمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

- الإطار التشبيهي التمثيلي للمقابلة في " مثل الذين ينفقون ... "وصلته بآخر في " فمثله كمثل صفوان .... " :

إن المقابلة في هذه الآيات الكريمة تقوم على تضاد عدة عناصر في إطار السياق التمثيلي العام ، حيث تتضاد مجموعة من العناصر في جانب واحد يرتكز على فكرة جامعة بين حال الإنفاق المأمور به والمرّغب فيه وما يتصل به من الأجر المضاعف ، وحال الإنفاق المهنى عنه والمرّهب منه وما يتصل به من إبطال العمل وضياعه ، والطرف الأول قد التقي بالإطار التمثيلي المصور له في هيئة ترغيبية تبرز عنصر المضاعفة في صورة الحبة التي ﴿ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ ﴾ بينما التقي الطرف المقابل له بإطار تمثيلي آخر مصور له في هيئة ترهيبية تبرز جانب الضياع المطلق لما تقدم ذكره من العمل " فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ... " .

<u>- عودة إلى تصوير المضاعفة في صورة الجنة التي لله آتت أكلها ضعفين :</u>

وتستمر بنا صورة التقابل بين هذين الجانبين لنخرج من مقابلة إلى أخرى ، ومن تمثيل إلى تمثيل ، فنجد تلك الجنة التي آتت أكلها ضعفين، وتلك التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، في إطار عام مبرز دقائق الحالين وما نشأ عنه وما ترتب على كل منهما .

---

(١) سورة البقرة / من الآيات ٢٦١ : ٢٦٨ .

ـ التقاء الأطراف المتقابلة لدى قوله تعالى : الشيطان يعدكم الفقر ... الآية :

ثم يمتد الأسلوب التقابلي امتدادا ثالثا يمثل وقفة تذكير وتحذير وترهيب وترغيب ، فيصل بنا إلى هذا الإطار المتصل الواضح في قوله تعالى : {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} .

ـ دعائم هذا الأسلوب من الوجهة النفسية :

ولقد دعم هذا الأسلوب في جوانبه العامة والخاصة بالكثير من الدعائم التي حققت غاياته .

ومن أبرزها العناية بالجانب النفسي للمتلقي .

فالذي يتدبر هذه الآيات البينات يجد معالجة واضحة للكثير من الجوانب النفسية في هذا المجال ، فالله سبحانه وتعالى خبير بالنفس الإنسانية التي خلقها وسواها ، وهو عز وجل يعلم ما تنطوي عليه من الشح والأثرة وحب المال حبا جما ، وما يتعلق بجميع ذلك من حب المنع ، والحرص على الاستكثار من المال وإبقائه للنفس وللذرية ، كما يعلم – سبحانه وتعالى – ما قد يتولد في النفس من صراع بين الدخول في الطاعة بمحاولة الإنفاق ، وبين هوى النفس وما قد ينشأ عنه من إيذاء ومن .

وتلك صفات نفسية كامنة لا يمكن إنكارها ، وهي – مجتمعة – تمثل مجموعة من المداخل النفسية والعقلية لموضوع الإنفاق في هذه الآيات .

ولقد تجلي الإعجاز هنا واضحا في مواجهة هذه النفس من أول الأمر بما تحب ؛ فقد ووجهت بهذه المضاعفة العظيمة لثواب المنفق في هذا الأسلوب المحكم الذي استهل بضرب المثل الجامع لطرفي تشبيه معروفة عناصره في كل زمان ومكان ، وماثلة صوره أمام الأعين ، محببة هيئته في النفوس ، " وقد ضربه الله سبحانه وتعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف " (١) .

وتظل صورة هذا المثل وما ارتبط به من عناصر : الإنفاق في سبيل الله ، والحبة التي أنبتت سبع سنابل ، وما تضمنته كل سنبلة من مائة حبة ، وما يرتبط به ذلك الثواب من مضاعفة لمن يشاء الله عز وجل ، تظل هذه الصورة المحببة إلى الأنفس والأعين والآذان والقلوب تؤتي ثمارها ، وتنتشر دلالاتها فيما تضمنته المقابلة الأسلوبية العامة من العناصر المشتملة على جوانب هذه القضية الكبرى التي تتصل بالنفس البشرية ، وما تنطوي عليه وتتعلق به .

فلقد امتزج الأسلوب – من أول الأمر هنا – ببيان أهمية النية في الإنفاق ، فهو " في سبيل الله " وابتغاء مرضاته . ولقد تكرر بيان ذلك وتأكيده فيما ورد بعد ذلك من قوله تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .... } ، الآية .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ١ : ٣١٦ . مكتبة الإيمان . ط الأولى ١٩٩٦ .

كما امتزج بترتيب هذا الثواب المذكور على صدق النية ، وصلاح العمل حيث تضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وتلا ذلك كله – بعد إثباته في النفس والترغيب فيه – تفصيل وتأكيد صفات الإنفاق المحمود وفاعليه ، فهو لا يكون إلا في سبيل الله ، وهم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه " بقول أو فعل[فـ] لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان " (1) .

ومن العناصر التي دعمت هذا الأسلوب هنا إبراز ذكر الثواب بعد بيانه في الآية السابقة ، وتقريب ما هو محبب إلى النفس من جزاء بترديده مرتين متقاربتين ، مرة بصورة الحبة التي " أنبتت سبع سنابل... " ومرة بالنص على ذكر الأجر المجرد من التحديد وإتباعه بقوله تعالى : { وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} .

دلالات التكريم في تكرار الضمير العائد على المنفقين :.

ومن هذه العناصر ما تضمنه هذا الأسلوب من معاني التكريم ذات الدلالات العديدة مما يتجلي في ذكر الضمير الدال على

---

(1) السابق :-318 .

الممدوحين خمس مرات ، وهو الضمير " هم " مرة في : (لهم " ، وثانية في أجرهم ، وثالثة في :" عند ربهم " ، ورابعة في : " لا خوف عليهم " ، والخامسة في :" " ولا هم يحزنون " ، بالإضافة إلى ضمير الجماعة " الواو " الذي اختتمت به الآية في :" يحزنون " .

- ورود النفي في جانبي العمل والأجر :.

وانظر – في ذلك – إلى هذا الترديد اللفظي الصوتي الدلالي لكلمة " لا " فيما اشتملت عليه من جمع جانبي النفي المتصلين أسلوبيا فيما يتعلق بالعمل تارة من نفي إتباع الإنفاق بالمن والأذى نفيا تاما مطلقا يلمس في تنكير اللفظتين ، ثم فيما يتعلق بالأجر من نفي للخوف والحزن نفيا تاما مطلقا كذلك .

- دلالة الإضافة في قوله تعالى " ربهم " :.

وانظر كذلك إلى الالتقاء الدلالي لهذين الجانبين لدى إشارة إيحائيه بالغة السمو في إضافة لفظة " رب " إلى الضمير " هم " في قوله تعالى :" ربهم " حيث تتخذ معاني التكريم والولاية وإطلاق الأجر من التحديد والحصر مواضعها من الأسلوب وآثارها في الفكر والنفس .

- المفاضلة بين القول المعروف والمغفرة والصدقة التي يتبعها أذى ودلالتها وما يتصل بذلك :.

وتبرز من بين هذه العناصر الأسلوبية المحققة غايات المقابلة هنا هذه المفاضلة بين القول المعروف وما يقترن به من المغفرة ،

والصدقة التي يتبعها أذي ، وما في ذلك من بيان فضل الأول وعظم شأنه ومنزلته ، على الثانية وضعتها بسبب ما أتبعت به من الأذى ، وهو ما يتضمن تأكيدا واضحا لجانبي الأمر والنهي ، وتأكيدا آخر لتبغيض المن والأذى إلى النفوس بتعدد ذكرهما مقترنين في كل حال بأسلوب يوضح جوانبه .

وهذا التأكيد لجانبي الأمر والنهي وما يتعلق بهما قد ورد مقترنا بدوره بجانبين :

الأول : تأكيد النفي للمن والأذى تكرارا وعطفا واقترانا بما يقابله من تأكيد عظم الأجر ، **والثاني** : هو ما تعلق به وترتب عليه من تلك المفاضلة الواضحة بين الجانبين .

- إيضاح دلالة النهي في { لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم } بتمثيلين متتاليين :

وهنا يلمح المتدبر بوضوح هذه المعالجة النافذة إلى أغوار النفس البشرية في تدرج مبني بعضه على بعض ، وموضح ما يغفل عنه من الأمور ، إشعارا لها بهول ما قد يظن هينا من القول أو العمل .

فبعد أن تفهمت وضع الصدقة ، وما يكفل لها المنزلة السامية وما يضيع شأنها ويذهب أجرها ، واتضح لديها منزلة القول المعروف وكونه أفضل من صدقة يتبعها أذى ، في أسلوب عام لا يخاطبها خطابا مباشرا ، مما يهيئ لها حسن التدبر للقضية مجردة من الإسناد المباشر إليها ، ووجهت – بعد ذلك – بالنداء ، وفوجئت بالحكم الرادع من

خلال أسلوب النهي المباشر الموجز : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى } ، ثم دخلت مباشرة إلى مجال التشبيه ، فاقترن لديها ذلك بكل ما تعلم بشاعته من إنفاق المال رئاء الناس ، وتجرد من الإيمان بالله واليوم الآخر { كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } .

ثم أسلمها الأسلوب إلى تدبر الأمر في أدق صوره الحسية التي يتصل عبرها التأمل الحسي بالقضية الفكرية التي يتدبرها العقل ، وبما يمتزج بالنفس من مشاعر الرغبة والرهبة ، فإذا بها أمام أسلوب تشبيهي تمثيلي آخر ، تجتمع لديه جميع العناصر السياقية الواردة قبله ، لتمثل ركنا كبيرا من أركانه ، كما تجتمع هذه العناصر الحسية الموضحة لدقائقه وغاياته في قوله تعالى : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ، فتجتمع هذه العناصر لتقترن بسابقتها، وليجد المتأمل أنه خرج من جميع ذلك بإدراك حسي عقلي لمعني بعيد تكمن دلالته فيما استهل به النهي المدوي صوته بعذ النداء : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى }.

فهو نهي رادع قد اقترن فيه الفعل بجزائه حيث " لا يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى " [1] كما امتزج الأمران معا بذلك الطرف الآخر من خلال أسلوب التشبيه المتضمن جانبين مبني أحدهما على الآخر ، فترابطت – عبر هذا التعدد – الجوانب الثلاثة ؛ المشبه : وهو من يبطل صدقته بالمن والأذى ، والمشبه به الأول : وهو من تبطل صدقته من المرائين ، والمشبه به الثاني : الذي يتضمنه هذا التشبيه التمثيلي المفصل ذكره تفصيلا دقيقا ، وهو الحجر الأملس الذي " عليه تراب [فأصابه وابل] (أي) مطر عظيم القطر ، [فتركه صلدا] أجرد نقيا من التراب الذي كان عليه " [2] .

ويوضح البعض هذا التشبيه بقوله : شبه " المنافق – فيه – بالحجر في عدم الانتفاع ، ونفقته كالتراب لرجاء النفع منها بالأجر والإنبات ، ورياءه كالوابل المذهب له سريعا ، الضار من حيث يظن النفع ووجه الشبه عدم الانتفاع لا القسوة " [3] .

وبعد جلاء ذلك كله ، تأمل كيف بلغ شأن هذه القضية ومنزلتها وتأكيدها مبلغه بالعود إليها ، فكلما ظن المتأمل لطرف من أطراف الأسلوب أن المعنى قد اكتمل ، والقضية قد اتضحت ، والتأثير قد بلغ مداه ، يجد عودا متجددا في سياق متجدد ، يبث في النفس نشاطا

---

(١) نفسه .
(٢) الزمخشري : الكشاف : ١ : ٣٩٤ . ط دار الفكر ١٩٧٧ .
(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي : عناية القاضي وكفاية الراضي : ٢ : ٣٤٢ ط بيروت .

وتطلعا ، وفي المشاعر امتدادا وتتبعا وفي الفكر بحثا عن المزيد مما فتح مجالات فهمه وكوامن إدراكه لما ظنه هينا فرآه مهولا ، واعتقده مألوفا فرآه غريبا منفراً .

- التقاء صورة : { الحبة التي أنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } بصورة : الجنة التي آتت أكلها ضعفين " ودلالة ذلك :

فحين نتلقي قوله تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ } نذكر ذلك الأسلوب المحبب الذي اقترب عهدنا به فيما استهلت به هذه الآيات في قوله تعالى : {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ }وحين نلتقي بعد ذلك بقوله تعالى : { وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ } نجد إضافة عظيمة تتسلل إلى النفوس لتثبتها على ما ينبغي لها من صدق النية وإخلاص العمل ، وحين نتأمل – بعد ذلك – قوله تعالى : { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ، تتعمق مشاعر الإحساس بالثواب المضاعف الذي تلقته النفس من قبل في صورة الحبة التي { أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ } ، وصورة المضاعفة التي بعده في : { وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ } ، ومرد ذلك كله وسببه ودخوله في علم الله تعالى الذي لا يخفي عليه شيء من قصد المنفق ونيته في قوله تعالى : { وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} مما ذكر به – جل شأنه هنا أيضا في { وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

ومما لوحظ في هذا الصدد في قوله تعالى : {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أن " استدعاء النفقة مذكر بالبعث وحاض على اعتقاده لأنه لو لم يعتقد وجوده لما كان ينفق في سبيل الله ، وفي تمثيل النفقة بالحبة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدر . إذ حبة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبة ، فمن كان قادرا على مثل هذا الأمر العجاب ، فهو قادر على إحياء الموتى ، وبجامع ما اشتركا فيه من التغذية والنمو " (1).

إن هذا الانتقال إلى تشبيه تمثيلي آخر مركب العناصر يدعو إلى توقف آخر لديه ، ذلك أن صورة الحبة التي أنبتت سبع سنابل لا زالت قريبة العهد ، ماثله للذهن بحسن هيئتها وكثرة خيرها ، والانتقال هنا إلى هذه الصورة من شأنه أن يعمق مشاعر الرغبة في الإنفاق تعميقا عظيماً ، حيث يبرز الثواب مصورا في هذا التشبيه التمثيلي الآخر ذي العناصر المركبة ، مما يبرز في هيئة حسية ذات حسن مطلق ، فيشتد التعلق بالنظر إليه وتأمله ، ويمكن في النفس حبه واستحسانه ، والرغبة في تملك ما تضمنه من وجوه الخير .

فهذه هيئة " { جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } ، وهي مقترنة في جميع أحوالها حسنا ونماء

---

(1) أبو حيان الأندلسي : تفسير البحر المحيط / 2 : 303 . ط دار الفكر – بيروت ، ط الثانية 1972 .

وإثمارا بتلك القضية التي تشغل العقول والقلوب مما تضمنه الأسلوب ومضي يبثه ويثبته .

وهذا الاقتران اتخذ صورة الامتزاج التام عبر هذا التشبيه التمثيلي وعناصره ، فقد" مثل حالهم عن الله تعالى بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعّف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ، بعد أن يطلب بها وجه الله ، ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده " ، وخص بالذكر الجنة بالربوة " لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً " (١) .

إن هذا الامتداد الأسلوبي للمقابلة عبر التشبيه والتمثيل على نحو حسي مقرب ومؤكد لقضاياها في النفس ، ليمتد ليسبر غور هذه النفس المنطوية على مشاعر الحرص ، والخوف على المال والشفقة على الذرية ، وقوة الرغبة في الغني ، وخشية الفقر مع الضعف .

-التقاء الدلالات السابقة بدلالات التقابل المتتابعة في : أيود أحدكم ... الآية :

وهذا الامتداد الأسلوبي لم يتوقف ، ولم تنفصل حدوده بعضها عن بعض .

---

(١) السابق : ٣٩٥ .

فانظر كيف يفاجئ النفس بهذا التنبيه المثير لكل كوامنها المتعلقة بهذه القضية في شكل استفهام قائلاً :{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ... } إنه خطاب عام لم تختص به جماعة ، ولم يختص به فرد ، فهو يشمل كل واحد من أفراد المخاطبين ، بشرط تقدم ذكره عليه متضمناً في الاستفهام : " أيود أحدكم " متبوعاً بتفصيل واضح : {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} .

قال الحسن :" هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه ، أفقر ما كان إلى جنته وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا " [1].

إن جوانب الصورة البيانية المتضمنة هذه العناصر قد اكتملت وتمت آثارها بما اشتملت عليه من خصائص التعبير الذي جعل كلا منها في بنائه الخاص داخل السياق العام ، وكأنه صورة مكتملة بجميع جزئياتها وعلاقاتها ، مما يمكن تبيينه بتأمل هذه الجوانب كل على حدة .

فقد ورد وصف الجنة في أفضل أوضاعها وهيئاتها .

وورد بيان حال صاحبها في أشد درجات الافتقار إليها حيث " أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء " .

---

(١) نفسه .

وورد بيان قوة وسرعة تحول حال الجنة مقابلا تحول حال صاحبها من الحسنات إلى المعاصي " حتى أغرق أعماله كلها " (١) فصارت – أي الجنة- إلى الهلاك والدمار .

وتحققت دلالة ذلك كله من خلال اجتماع الأحوال والهيئات والصفات ، كما أن صاحب الجنة لم يعد لديه " قوة أن يغرس (مثلها) ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه [فـ] كذلك [حال] الكافر يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته " (٢) .

كما ورد بيان جانبي المقابلة بين حالي الجنة المثمرة وصاحبها في جانب ، وما أصابها من الإعصار المحرق ، وما أصابه من الكبر وشدة الافتقار والعوز في جانب آخر .

وورد ضمن ذلك كله جانب التقابل بين سالفه من الأمثال التي اقترن فيها ثواب الصدقة بهيئة الحبة المباركة التي تضاعف إنباتها ، ثم بهيئة الجنة التي لا تمحل أبدا ، وما تضمنه ذلك من إيضاح مكانة

---

(١) نفسه .

(٢) تفسير ابن كثير / ١ : ٣١٩ .

عمل المؤمن عند الله تعالى حيث " لا يبور أبدا بل يتقبله الله ويكثره وينميه ، كل عامل بحسبه " (١) ، وكذلك بينه وبين كون العمل خالصا لوجه الله لا يحبطه من ولا أذى ولا رياء ، وبين نقيضه المبني على الرياء أو المتبوع بما يحبطه ويذهب أجره من المن والأذى ، مما تأكد واتضح لدى هذه الصورة البينة الماثلة في قوله تعالى: { فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ }.

العناصر اللغوية في هذا السياق التقابلي العام :.

وبالنظر إلى الجوانب اللغوية في هذا السياق التقابلي العام الممتد يتضح أن هذه الجوانب قد اتخذت مكانها البارز عبر معالجة النفس الإنسانية ، وسبر غور آفاقها وكوامنها من خلال الكثير من العناصر اللغوية .

وإذا كانت الصورة البيانية عمادا ثابتا من أعمدة هذا الأسلوب المعجز ؛ فلقد تعددت العناصر التعبيرية واللغوية التي تم من خلالها تجميع ذلك .

ولبيان ذلك يمكن تأمل هذه الجوانب التي أسهمت في تحقيق هذه الغايات وبيان آثارها ؛ فبالنظر إلى الفعل " ينفقون " الذي أتبع بـ " أموالهم " وتأمل اقتران الإنفاق بهذه الملازمة الكائنة بين الأموال

---

(١) نفسه .

وأصاحبها من خلال إضافة " أموال " إلى الضمير هم " المشار به إلى أصحابها ، واستشعار ما وراء ذلك من المعاني النفسية المتصلة بتعلق المنفق بما له ، وحرصه عليه ثم إيثاره إنفاقه على اقتنائه ، وما يتصل بذلك من إشارة واضحة إلى منزلة الإنفاق وجزائه .

هذا فضلا عن أن التعبير بالفعل " ينفقون " له دلالته على الاستمرار والتجدد وهو ما تنبه إليه " الزركشي" في بيانه الفرق بين الخطاب بالاسم والفعل – حيث " لم يقل – هنا – " المنفقين " .. لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد ... " [1] .

وكذلك يمكن النظر إلى الفعل " أنبت " الذي أسند إلى " حبة " واحدة ، وما ترتب على ذلك من كمال هيئة النبتة التي صارت إلى سبع سنابل ، ثم ما ارتبط به ذلك من تحديد عددي لحباتها ، ثم ما انتقل إليه بعده من التحديد إلى الإطلاق ، حيث المضاعفة غير المحددة .

وكذلك النظر إلى هذا الجمع الموجز الدال للألفاظ : {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى } ، حيث اجتمعت خمس نكرات متتابعات في سياق تفاضل بين جانبين ؛ الأول منهما مشتمل على ثلاث هي : {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ }، والثاني مشتمل على اثنين هما : { صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى } ، فالنكرة الأولى في الجانب الأول متبوعة

---

(١) الزركشي " البرهان : ٤ : ٧٩ .

بنعتها ، ومعطوف عليها جزاؤها ، وهذا في جملته قد اتخذ مكانته وارتفع شأنه في سياق هذه المفاضلة بينه وبين الجانب الثاني ، وتوسط الجانبان لفظ " خير " وهو نكرة بدوره ، فلكل جانب ولكل عنصر لفظي في ذلك شأنه ، وعموم دلالته وارتباطه بسابقه ولاحقه في هذه الآيات التي اجتمعت دلالاتها حول الحث على صالح القول والعمل من إنفاق ، وقول معروف خالص لوجه الله تعالى ، وكيفية الإبقاء على سمو منزلة ذلك ، والتنبيه إلى ما يحبطه ويضيعه .

وكما أن ما سلف من ذكر مضاعفة الثواب قد اقترن بسعة علم الله تعالى ، فإن الجانب المفضل عليه هنا قد أتبع بما يلائمه كذلك ، حيث اختتمت الآية بذكر غني الله سبحانه وتعالى ، فـ " لا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذي " (١) ، وحلمه عز وجل " عن معاجلته بالعقوبة ، وهذا سخط منه ووعيد له " (٢) ، فالله غني عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى ، وحليم لا يعجل العقوبة [وهو تعبير له أثره النافذ في النفس البشرية] فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذي " (٣) .

وكذلك النظر إلى هذا الانتقال من التنكير السابق إلى التعريف ، والالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمائر الخطاب في إطار متضمن التنبيه ، في ذلك النداء : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } ، والنهي في : " { لاَ تُبْطِلُوا } ، وبيان ملازمة العمل لجزائه واجتماعهما في شخص

---

(١) الزمخشري : الكشاف ١ : ٣٩٤ .
(٢) نفسه .
(٣) أحمد بدوي : من بلاغة القرآن الكريم : ٨٠ ..

الفاعل في :" صدقاتكم " ، وعطف المتلازمين المعرفين بيانا لأثرهما في :" بالمن والأذى " ، والمقابلة بين حالي الإيمان الذي تضمنه النداء، والنفاق الذي تضمنه المشبه به في : " كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر " ، واجتماع دلالة جميع ذلك في هذه الصور الحسية التي يتجرد فيها الفاعل من ثواب فعله ، كما تجرد الحجر الأملس مما كان عليه تجردا تاما ، واقتران جميع ذلك – كما اقترن سالفة – بما يناسبه ويؤكد دلالته في " { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} " وهذه الجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله من صفات الكفار ، كما أن فيها تعريضاً بأن كلا من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ، ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها " [1] .

وكذلك الانتقال من التمثيل لحال الإنفاق "رئاء الناس " والإنفاق " ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم " ، ومن تشبيه حال الأول بالحجر الأملس الذي ذهب ما عليه من التراب حين أصابه وابل، والثاني بجنة { بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ }وبين انقطاع الأول وانتهائه وتوقفه عند هيئة متجردة من كل ما كان قد علق به " فتركه صلدا " ، واستمرار الثاني ودوامه وكثرته ونموه " فإن لم يصبها وابل فطل " .

---

(١) الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ٣: ٣٥ ط . بيروت.

ثم النظر أيضا إلى هذا الربط بين الأسلوب التشبيهي التمثيلي الأخير – هنا – وما تلاه من أسلوب استعاري تمثيلي يمثل امتدادا لهيئته ، بعد أن تهيأت النفس في الأول لاستقباله ، وثبت في النظر حسنه واكتماله ، ومفاجأة الذهن في الثاني منهما بقوله تعالى :" أيود أحدكم " تنبيها للأذهان ، وإشعارا بكون المسئول عنه بعده داخلا في الإمكان ، وحثا على الحرص على دوام الأمر المحبوب مما توده كل نفس وترغب في بقائه ، وترهيبا من إضاعته وتحول إلى نقيضه .

فالفعل " يود " المسبوق بهمزة الاستفهام ، والمتبوع بالفاعل المضاف إلى ضمير الجمع للمخاطبين " كم " ليأخذ بيد المخاطب ليحسن الفهم ، ويصل إلى الغاية .

أما كون هذا الفعل " يود " متبوعا بذكر تلك الجنة الكائنة بربوة والتي { أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ } مما هو محبب للنفس والنظر ، ومتبوعا في الوقت نفسه بذكر تلك الجنة التي هي { مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ }، فذلك مما يمكن لهذه الهيئة في نفس المخاطب ويعينه على معايشة المضمون والرغبة في حصوله . أما العودة من ذلك كله إلى بيان ما يقابله من الإهلاك والإحراق في حال شدة افتقار صاحبها إليها ، ففيه مفاجأة لذهنه وشعوره وفكره ، بيانا لما ترهب النفس حصوله ، وإيضاحا لما يغفل عنه من أسباب إبطال الأعمال ، وترهيبا مما يحصل من إضاعة الخير بإتباعه بالشر .

وكذلك النظر إلى تتميم هذه المجموعة من الأمثال التي اتضح سياقها باجتماع دلالاتها الكلية العامة لدى جانبي الترغيب والترهيب في سياق أسلوب تفصيلي ، يوضح بعضه بعضا ويؤكده لدى خاتمة تبين غايتها في قوله تعالى : { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي : " تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها " (١) .

وتمضي بنا هذه الجوانب التعبيرية المباركة لتبين ما يجب إنفاقه من طيب المال ، وتنهي عن غيره من الخبيث الذي تزهد فيه النفس ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } .

وتتخذ الألفاظ والتراكيب مواضعها من المعاني وتتم المعالجة القرآنية ترغيبا وترهيبا فيتبع ذلك كله قوله تعالى : {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} .

وفي ذلك ما لا يخفي من جمع أطراف القضية التي امتد الأسلوب التقابلي التمثيلي معالجا لها ، واتضحت دلالة الجانبين

---

(١) تفسير ابن كثير / ١ : ٣١٩ .

النفسيين المتضمنين في ذلك الأسلوب والذين يجمعان أحوال الإيمان والكفر ، ودلالة الصراع النفسي البشري بين العطاء والمنع ، وغاية السياق التصويري التقابلي في ترغيبه وترهيبه ، وقد " تقدم – هنا – اقتران الوعيد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قوبل بشيء واحد وهو الوعد ، فأوهم الإخلال بالثاني ، وليس كذلك ، وإنما لما كان الفضل مقابلا للفقر ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ، لأن الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة ، استغني بذكر المقابل عن ذكر مقابله ، لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر " [1] .

إنها مقابلة متجهة إلى معالجة هذه النفس الإنسانية وما ينازعها من وساوس الشيطان المتعلقة بخشية الفقر مما ينشأ عن الإنفاق الذي هو طاعة لله تعالى ، وما تتطلع إليه النفس المؤمنة من سعي مبلغ إلى ما وعد الله به من المغفرة والفضل ، مبلغ التحذير والترهيب – هنا – مبلغهما ، واتخذ التثبيت والترغيب مكانهما وعمقهما ، لتظل النفس بعد ذلك كله متيقظة إلى ما تردد عليها وتأكد لديها ، فهنا وعد بالمغفرة والفضل ، وقبله اقترن – لديها – القول المعروف بالمغفرة والأجر ، واجتمعت صور ذلك كله في إطار وصف الحبة المباركة ، ثم الجنة التي هي بربوة ، وبما تشتمل عليه من الثمار ، وما يمدها من الوابل ، وما يضمن بقاءها من أسباب وأسس .

---

(١) الزركشي : البرهان ٣/٢ : ٥٢٠ .

الفصل الثالث :

أولاً : الحقيقة والمجاز

ثانياً : المجاز العقلي

ثالثاً : المجاز المرسل

الفصل الثالث

أولاً : الحقيقة والمجاز

الكلمة في الاستعمال اللغوي تكون حقيقة حين تستعمل في دلالتها الوضعية ، أما إذا استعملت في دلالة أخرى غير وضعية صارت مجازا .

فالحقيقة هي اسم لكل لفظ أريد به ما وضع له ، أو هي ما أفيد بها ما وضعت له في أصل الاصطلاح الذي وقع به التخاطب ، ويعرفها " عبد القاهر الجرجاني " بأنها كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع " .

والمجاز اسم لما أريد به غير ما وضع له ، أو هو ما استعمله العرب في غير موضوعه ، ويعرفه عبد القاهر بأنه :" كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها ... من غير أن يستأنف فيها وضعا ، لملاحظة بين ما تجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها " .

ويعرف " السكاكي " الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص ، فلفظ الأسد موضوع له بالتحقيق ، ولا تأويل فيه ،

ويوضح ذلك بقوله : ولك أن تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلاله ظاهرة [1] .

ويقول ابن " الأثير " إن الحقيقة هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي ، والحقيقة اللغوية هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني [2] .

أما المجاز فمأخوذ من جاز هذا الموضوع إلى ذلك إذا تخطاه ، فالمجاز – إذن – اسم للمكان الذي يجاز فيه ، ثم نقل ذلك اللفظ في الاصطلاح إلى الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له باعتبار كونها طريقاً إلى تصور المعني المراد منها . فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل .

والمجاز في اصطلاح علماء البلاغة :" الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب ، لعلاقة ، وقرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي ".

فإطلاق لفظ " الشمس " على الوجه المليح مجاز ، وإطلاق لفظ " البحر " على الرجل الجواد مجاز أيضاً ؛ فلفظ " الشمس " له دلالتان إحداهما حقيقية وهي هذا النجم العظيم المعروف ، والأخرى مجازية وهي الوجه المليح . وللفظ البحر دلالتان أيضاً إحداهما هذا الماء العظيم الملح وهي حقيقية ، والأخرى هذا الرجل الجواد وهي مجازية ، ولا يمكن أن يقال إن هاتين الدلالتين سواء ، وأن الشمس

---

(١) السكاكي : مفتاح العلوم : ١٩١ .
(٢) ابن الأثير : المثل السائر : ٣٦ .

حقيقة في النجم والوجه المليح ، وأن البحر حقيقة في الماء العظيم الملح والرجل الجواد ، لأن ذلك لو قيل لكان اللفظ مشتركا بحيث إذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقاً بغير قرينة تخصصه لم يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته ، والأمر بخلاف ذلك، فإذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد ، وإنما يفهم منه ذلك النجم المعلوم وذلك الماء المعلوم لا غير .

والمرجع في هذا إلى أصل اللغة التي وضعت فيها الأسماء على مسمياتها ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمي شمساً ، ولا أن الرجل الجواد يسمي بحراً ، وإنما أهل الخطابة والشعر هم الذين توسعوا في الأساليب المعنوية فنقلوا الحقيقة إلى المجاز ، ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع ، ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية .

أقسام الحقيقة باعتبار اصطلاحات التخاطب

الحقيقة اللغوية :

إذا استخدمت الكلمة فيما وضعت له في الاصطلاح اللغوي وما قد جري به التخاطب كانت حقيقة لغوية ، فهذا كألفاظ : الوردة ، والكثيب ، والجبل ، والبرق ، وتلك الألفاظ تستعمل في معناها الأصلي فتكون حقيقة ، وتستعمل في غيره فتكون مجازاً ، والمجاز لابد أن يكون مسبوقاً بالحقيقة المفهومة لدى صاحب اللغة وواضعها ، ولا يقضي بكونها حقيقة لغوية فيما دلت عليه إلا إذا كانت مستعملة في موضعها الأصلي ، فلابد من سبق وضعها أولا . ومن هنا قال العلماء: إن الوضع الأول للكلمة ليس مجازاً ولا حقيقة ، وإنما يكون وصفها بذلك بعد الاستعمال .

الحقيقة العرفية الخاصة :

وهل التي تعارف عليها طوائف أصحاب العلوم من الألفاظ التي تستعمل في معان خاصة غير معانيها اللغوية كاصطلاح النحاة على ألفاظ المبتدأ والخبر والحال والتمييز ، وكاصطلاح الفلاسفة على ألفاظ الجوهر والعرض والكل والجزء .

الحقيقة العرفية العامة :.

وهي التي تكون وليدة استعمال العرف العام كاستعمال الدابة في ذوات الأربع ، فهذه حقيقة عرفية عامة . فالدابة في أصل الوضع اللغوي تطلق على كل ما يدب من الحيوانات ، ثم إنها اختصت ببعض البهائم ، وهي ذوات الأربع من بين سائر ما يدب على الأرض .

الحقيقة الشرعية :.

وهي ما استعمله الشرعيون من ألفاظ لمعان لم توضع هذه الألفاظ لها في أصل اللغة ، وصارت هذه الألفاظ حقائق في هذه المعاني كالإسلام والإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج .

أقسام المجاز

ويسلك البلاغيون في تقسيم المجاز مسلكهم في تقسيم الحقيقة ، فالمجاز المفرد لغوي كلفظ (الأسد) إذ استعمله المخاطب بعرف اللغة في الرجل الشجاع ، وشرعي كلفظ (الصلاة) إذا استعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء ، وعرفي خاص كلفظ (فعل) إذا استعمله المخاطب بعرف النحو في الحدث ، وعرفي عام كلفظ (الدابة) إذا استعمله المخاطب بالعرف العام في الشاة مثلاً [1] .

---

(١) انظر بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ٣ : ٨٨

تقسيم المجاز اللغوي باعتبار علاقته.

علمت أن المجاز اللغوي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب اللغوي على وجه صحيح لعلاقة بين المعنيين الحقيقي والمجازي مع قرينة مانعة من إرادة حقيقة ما وضع له اللفظ .

وهذه العلاقة المصححة لهذا الاستعمال إن كانت مشابهة المعني الأصلي للمعني المجازي للفظ كان هذا الاستعمال أو اللفظ مجازاً بالاستعارة .

وإن لم تكن تلك العلاقة هي المشابهة ، كان المجاز اللغوي مرسلا وسمي كذلك لإرساله عن التقيد بعلاقة المشابهة ، وبهذا يكون مطلق لفظ مجاز أعم من كونه مرسلاً أو استعارة [1] .

المجاز العقلي :

وقد جعله بعض البلاغيين من مباحث البيان ، كما آثر غيرهم جعله من مباحث علم المعاني .

---

(١) عبد القاهر : أسرار البلاغة : ٢٨

ولقد وضعه شيخ البلاغيين السكاكي موضعه من مباحث علم البيان ، غير أن الخطيب ذهب إلى إيراده في علم المعاني لدخوله في تعريف علم المعاني دون علم البيان .

ولما كان بإجماع البلاغيين ضرباً من المجاز ، وقد وضعوا المجاز في علم البيان ، والعقلي أحد ضربيه ، حسن أن يدرس في هذا الباب .

ثانيا : المجاز العقلي

١ـ معنى المجاز العقلي وعلاقاته :ـ

اعلم أنه متى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل ، لا يصح ردها إلى اللغة ، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها ، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم ، فلا يصير " ضرب " خبراً عن " زيد " بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الضرب له فعلاً [1] .

وعلى هذا فإن المجاز قسمان :

١ـ المجاز العقلي : ويكون في الإسناد ونسبة الشيء إلى غير ما هو له ، ويسمى المجاز الحكمي ، والإسناد المجازي ، ولا يكون إلا في التركيب .

٢ـ المجاز اللغوي : ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معان أخرى بينها صلة ومناسبة ، وهذا المجاز يكون في المفرد، كما يكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له .

وهذا النوع اللغوي قسمان :

---

(١) السابق : ٢٥٥ .

أ- مجاز تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المشابهة ويسمي الاستعارة ، أو المجاز الاستعاري .

ب-مجاز لا تكون العلاقة فيه مشابهة ، ويسمي (المجاز المرسل) وسمي مرسلا - كما سلف الذكر – لأنه لم يقيد بعلاقة المشابهة، أو لأن له علاقات كثيرة .

علاقات المجاز العقلي.

١- السببية : كما في قول الشاعر :

إني لمن معشر أفني أوائلهم   قيل الكماة [1] الا أين المحامونا

فالذي أفني أوائل هذا الشاعر إنما هو الله تعالى ، بسبب إقدامهم في الحروب ، واستجابتهم للداعي كلما قال الشجعان : أين المحامون عن الأهل والعرض ؟ .

ومثل قول القائل : بني الأمير المدينة ، فإن الأمير لم يبن ولم يزاول عملية البناء ، وإنما بني العمال بسبب أمره .

٢- الزمانية : كقول الشاعر :

أشاب الصغير وأفني الكبير كر الغداة ومر العشي

فقد أسند أشاب وأفني إلى الزمن .

٣- المكانية كقول الله تعالى :

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } .

---

(١) الكماة: الشجعان .

فقد أسند الجريان إلى الأنهار ، والنهر – عند علماء اللغة – اسم للفراغ الممتد بين الشاطئين ، والجريان إنما هو للماء ، فالإسناد للأنهار مجاز عقلي.

٤- المصدرية : كقول أبي فراس الحمداني :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند " جد " إلى الجد ، والمعني إذا جدوا في جدهم سيذكرونني.

٥- المفعولية : وذلك أن يسند ما بني للفاعل إلى المفعول الحقيقي ، كقوله تعالى :{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} ، أسند الرضا للمعيشة ، وهو – في الحقيقة – لصاحبها فهي عيشة مرضية ، فالإسناد مجازي وأصله : رضي المؤمن عيشته وكذلك قوله تعالى : {فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ} فقد أسند الدفق إلى الماء ، وهو مدفوق لا دافق .

٦- الفاعلية : وذلك أن يسند ما بني للمفعول إلى الفاعل الحقيقي ، كقولهم : سيل مفعم (بفتح العين) ، فأصله أفعم السيل الوادي أي ملأه لأن السيل هو الذي يفعم أي يملأ الوادي .

هذا ، ولا يختص المجاز العقلي بأسلوب الخبر ، بل يجري في الإنشاء أيضاً ، كقوله تعالى حكاية عن فرعون { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا } فإن البناء فعل العاملين بأمر هامان ، وقوله أيضاً : { فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا } ، وقوله تعالى : { فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} .

٢- سر بلاغة المجاز العقلي :

للمجاز العقلي الكثير من وجوه البلاغة التي تنشأ عن قوة الأسلوب في دلالته على المعني بضروب من الإيجاز والمبالغة ، وما تنطوي عليه تلك القوة من إشارات معنوية تحمل المتأمل على فهم جوانب مخصوصة من المعاني لا ينهض التعبير الحقيقي بأدائها .

فإذا تأملت قول الله تعالى : { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا }.
تجد أن الاشتعال قد أسند إلى الرأس ، وهو وصف للشيب وأن هذا الاشتعال يسند في اللغة إلى الشيب ، ولو جاء الكلام على حقيقته فقيل : اشتعل شيب الرأس ، لكان ذلك محتملاً أن يشتعل أكثر شعر الرأس ، ولكن لما قيل " اشتعل الراس شيبا " كان معني ذلك لا مجالة أن الشيب عم جميع شعر الرأس .

وفي قوله تعالى :

{وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا } ، تجد فرقا بين : وفجرنا عيون الأرض ، وبين التعبير القرآني ، فإن الآية تشعر بأن كل مكان في الأرض فجر عينا ، أما جملة : وفجرنا عيون الأرض فيفيد أنه فجرت عيون في الأرض كثيرة أو قليلة دون إشعار بالشمول الذي نجده في الآية الكريمة .

وفي قوله تعالى :

{ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} ، ليس الأمر مجرد مجاز عقلي علاقته السببية لعلة واضحة ، وهي أن التجارة معني من المعاني لا ينسب إليها الربح أو الخسارة ، وإنما ينسب إلى القائمين بها لأن المعني الحقيقي : فما ربح القوم في تجارتهم ، بل يتجاوز الأمر ذلك إلى إبراز جانب هام له دلالته ، يمكن فهمه حين نبحث عن أسباب استعمال القرآن الكريم لهذا المجاز فنجد :

أنه في مجال التجارة يكون المال هو المقدم على كل شيء ، فهو إحدى زينات الحياة الدنيا ، وقد يتوارى صاحب هذا المال خلفه ويضحي في سبيل زيادته بكل شيء ، ولعل هذا من أسرار إسناد الربح إلى التجارة نفسها دون أصحابها ، ليكشف عن حرصهم على هذا المال وتضحيتهم في سبيله ، وأن الخسارة فيه هي خسارة لا تحتملها نفوسهم المحبة لهذا المال .

ثـــالثـــا :

١- المجـاز المرسـل

عرفت أن المجاز اللغوي ينقسم قسمين ، هما المجاز المرسل ، والمجاز الاستعاري ، وأن المرسل ما كانت علاقته غير المشابهة ، والاستعاري ما كانت العلاقة فيه المشابهة .

والمجاز اللغوي يأتي في اللفظ المفرد ، فيكون في استعمال الكلمة في غير ما وضعت له عند أهل اللغة لعلاقة (يقع بها الارتباط بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي كالمشابهة في نحو " أقبل الأسد " إذا أريد الرجل الشجاع ، أو غير المشابهة كالمحلية في قوله تعالى : {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } أي بألسنتهم ، والأفواه محل الألسنة ، مع قرينة (وهي الأمر الذي يصرف الذهن عن المعنى الوضعي إلى المعنى المجازي ، وهي إما عقلية نحو " أقبل الأسد " والسامع يري رجلاً ، وإما لفظية نحو " بين هؤلاء الرجال أسد في يمينه سيف صارم " ، " فبين هؤلاء الرجال " و " في يمينه سيف " قرينه لفظية ، وهذه القرينة هي التي تمنع من إرادة المعني الوضعي .

ويأتي في المركب إذا استعمل التركيب في غير ما وضع له ، كقولك للحائر المتردد في أمر : مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى .

فالمجاز المرسل : ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه [1] ، مثل لفظ (اليد) إذا استعمل في النعمة ، لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها ، مثل قولهم : جلت يده عندي ، وكثرت أياديه علي ، ونحو ذلك .

ونظير هذا قولهم في صفة راعي الإبل : إن له عليها إصبعا ، أرادوا أن يقولوا : إن له عليها أثر حذق ، فدلوا عليه بالإصبع ، لأنه مامن حذق في عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللطف في رفعها ووضعها كما في الخط والنقش .

وكلفظ (اليد) أيضاً إذا استعمل في القدرة لأن أكثر ما يظهر سلطانها في اليد ، وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع ، وغير ذلك من الأفعال التي تنبئ عن وجوه القدرة ومكانها .

---

(١) بغية الإيضاح : ٣ : ٩١ .

٢- علاقات المجاز المرسل

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة ليست المشابهة من بينها ، ومن هذه العلاقات :

١- الجزئية : تتحقق هذه العلاقة بتسمية الشيء باسم جزئه ، كإطلاق العيون على الجواسيس ، وذلك لأهمية العين في هذا المجال ، وذلك نحو : بث الاستعمار عيونه في أرجاء الدنيا – أي جواسيسه ، ومن المرسل الذي علاقته الجزئية قول النبي - - صلى الله عليه وسلم - :" من قام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " فأطلق القيام وأراد الصلاة [1] .

ويشترط في هذا الجزء الذي يراد به الكل أن يكون له مزيد اختصاص بالمعني المقصود من كله .

فمثلا لا يجوز إطلاق اليد أو الرجل على الجواسيس ، لأن المشاهدة والترقب وتتبع الأحوال تتحقق بالعين على نحو واضح مشهور وليست كذلك الأيدي ولا الأرجل ولا غيرهما ومن ذلك قول الشاعر :

كم بعثنا الجيش جرا * را وأرسلنا العيونا

---

(١) انظر : بغية الإيضاح : ٣ : ٩٤ ، ٩٥

يريد : وأرسلنا المخبرين .

وقول الشاعر

أعلمــه الرمايــة كــل يــوم * فلمـــا اشـــتد ســـاعده رمـــاني
وكــم علمتــه نظــم القــوافي * فلمـــا قـــال قافيـــة هجـــاني

فقد أطلق الجزء (القافية) ، وأراد الكل (القصيدة) ، فالمجاز في كل هذا علاقته الجزئية .

٢- الكلية : وتكون العلاقة الكلية إذا أطلق الكل وأريد الجزء كما في قول الله تعالى : { يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ } فإن استحالة دخول الإصبع كلها في الأذن جعلت المراد من الأصابع الأنامل ، والسر في هذا التعبير أن هؤلاء الذين تعرضوا لصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق بلغ بهم الخوف والهلع درجة جعلتهم يكادون يدخلون أصابعهم كلها في آذانهم حتي لا تسمع آذانهم هذه الأصوات المخيفة .

٣- السببية : وذلك بأن يذكر لفظ السبب ، ويراد به المسبب (أي : النتيجة المترتبة عليه) .

ومـن ذلـك اسـتخدام كلمـة اليـد فـي قولـه تعـالى : {إِنَّ الَّـذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } .

فلفـظ " اليـد " فـي الآيـة الكريمـة يشـير إلـى القـدرة ، فيكـون المعني: قدرة الله فوق قدرتهم ، والعلاقة هنا هي السببية .

وقولهم في صفة راعي الإبل : إن لـه عليها إصبعا ، أي أثرا حسنا ، وقول الشاعر :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له * عليها إذا أجدب الناس إصبعاً

فلفظ الإصبع له معني حقيقي ، وهو " إصبع اليد " ، ولكن هذا المعنـي ليس مراداً هنـا ، وإنمـا يـراد أثـر هذا الإصـبع ونتيجتـه ، وهو الأثر الحسن الذي يرى على هذه الإبل لحدب الراعي عليها ، وحسن سياسته لها ، وتخير أماكن الكلأ المناسبة ، والعلاقة بين المعنيين هي السببية ، حيث ذكر السبب وأراد المسبب .

ومن هذا القبيل قول المتنبي :

لـــه أيـــاد علـــى ســـابغة * أعـــد منهـــا ولا أعـــددها

فالمقصود بلفظ (الأيادي) هنا النعم التي قدمها له الممدوح لأن الأيادي سبب تلك النعم ، إذ بها تقدم تلك النعم غالبا .

وكقولهم : رعينا الغيث ، أي النبات الذي سببه الغيث ، وعليه قوله عز وجل : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ } فسمي جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء [1].

٤- المسببية :- وهي أن يكون المعنى الأصلي للفظ المذكور مسببا عن المعنى المراد .

كقول الله تعالى : { وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا }.

أي مطراً يسبب الرزق ، والقرينة : ينزل من السماء .

وقوله سبحانه وتعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا } [2] .

فعبر عن مال اليتيم بالنار لأن النار مسببة عنه ، والقرينة " في بطونهم" . وقوله جل شأنه : {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } أي : إذا أردت أن تقرأ ، فعبر عن الإرادة بالقراءة ، لأن القراءة مسببة عن الإرادة ، بدليل التعبير بالفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب ، إلى جانب استفاضة السنة بتقديم الاستعاذة قبل القراءة [3] .

---

(١) بغية الإيضاح : ٣ : ٩٦ .
(٢) بغية الإيضاح : ٣ : ٩٨ .
(٣) نفسه.

٥- اعتبار ما كان : أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، نحو قوله تعالى : {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ} أي الذين كانوا يتامى ، فإنهم لا يسمون يتامى بعد البلوغ الذي تدفع فيه إليهم أموالهم .

وقوله تعالى : {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا} سماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام [١] .

٦- اعتبار ما يكون : أي تسمية الشيء باسم مايؤول إليه .

ومن ذلك قول الله تعالى : { إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا } فقد أطلق على العنب لفظ الخمر ، وذلك باعتبار ما يكون .

فالمعني : أعصر عنبا يؤول إلى الخمر .

ومنه قول القائل : سأوقد ناراً ، أي حطبا يؤول إلى النار ، فقد سمي الحطب ناراً باعتبار ما يؤول إليه على سبيل المجاز المرسل لا الحقيقة .

ومنه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام :

{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا} والمولود حين يولد لا يكون فاجرا و كفارا ، ولكنه قد يكون كذلك بعد الطفولة .

---

(١) السابق : ٩٩ .

فأطلق على المولود الفاجر الكفار وأريد به الرجل الفاجر الكفار، والعلاقة بينهما اعتبار ما يكون ، وهذا تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .

٧- الحالية : أن يذكر لفظ الحال ، ويراد المحل ، كما في قوله تعالى : {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ، فقد ذكرت الرحمة وأريدت الجنة ، والأولى حالة والثانية محل لها ، والقرينة (في) فإن الرحمة لا تصلح أن تكون ظرفا ، ومثل ذلك قوله تعالى : {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} ، فالمراد بالنعيم مكانه ، وهو الجنة .

٨- المحلية : ويقصدون بها أن يذكر المتكلم المحل أو المكان ، ويريد به ما يحل به ، أو من يقيم فيه ، كما في قول الله تعالى : {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ* سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} ، فالنادي له معني حقيقي ، وهو مكان اجتماع القوم ، ولكن هذا المعني الحقيقي غير مراد هنا ، لأن المكان لا يدعي ، وإنما يدعي من يحلون به ، ويجتمعون فيه ، فالآية الكريمة قد ذكرت " المحل " وأرادت الحال .

ومن ذلك قول الله تعالى عن المنافقين :
{ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} ، فالقول لا يكون بالأفواه بل باللسان ، والأفواه محله ، فالعلاقة هنا المحلية .

ومن هذا القبيل استخدام كلمة " الصدر " في القرآن الكريم ، حيث ترد – غالباً – مرادا بها " القلب " كما في قوله تعالى : {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ } وقوله تعالى : { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } .

وقوله تعالى : {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ الله }.

فالآيات الكريمة السابقة قد اشتملت على مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث ذكر فيها " الصدر " وأريد به " القلب " والصدر هو المحل ، والقلب هو الحال .

ومن هذا ورد قول الشاعر :

قل للجبان إذا تأخر سرجه * هل أنت من شرك المنية ناجي

فالسرج هنا لا يراد به معناه الحقيقي ، لأن السرج نفسه لا يتقدم أو يتأخر ، وإنما يراد به الراكب عليه ، فالسرج محله .

٩- الآلية : وهي إطلاق اسم الآلة ، ويراد الأثر الناتج عنها . كقوله تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ } أي : بلغة قومه ، فأطلق اللسان ، وأراد اللغة ، إذ اللسان آلتها . وقوله عز وجل : {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} أي ذكرا صادقا وثناء حسنا ،

فيمن يأتي بعدي من الأمم ، فاللسان آلة وواسطة للذكر الحسن ، والقرينة في الآخرين .

وقوله جل شأنه :" فإنما يسرناه بلسانك " أي : بلغتك ، لأن اللسان آلة اللغة .

١٠- المجاورة : كالتعبير عن الجسد بالثياب في قوله عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

فواضح أن الثياب مجاز ، لأن شكها لا يميت صاحبها .

ومن ذلك إطلاق لفظ الراوية على البعير الذي يحمل الماء – والراوية في الأصل هي الوعاء الذي يكون فيه الماء ، ويحمل على البعير ، والعلاقة المجاورة .

٣- محاسن المجاز المرسل

للمجاز المرسل منزلة سامية ، ودرجة رفيعة بين فنون البيان ، وذلك لما يفيده من الإيجاز ، فإن قولك :" رعت الماشية الغيث " ، أوجز من قولك :" رعت الماشية النبات الذي سببه الغيث ". وقولك :

جرى الوادي ، أوجز من قولك : جرى ماء الوادي ، وفيه إشعار بكثرة الماء وعمومه جميع أجزاء الوادي .

هذا إلى جانب ما يفيده من المبالغة في تأكيد المعني ، وتقريره في النفس ، لأنه كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ، ويتجلى ذلك في قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} .

فإن في الآية الكريمة مجازين مرسلين :

الأول : في قوله عز وجل :" قد بدت البغضاء من أفواههم ، فالمجاز في لفظ :" البغضاء " ، وإنما كان لفظ البغضاء مجازاً مرسلاً عن الكلمات الدالة على الكراهية ، لأن البغضاء معني من المعاني المكونة في القلوب ، وهي لا تبدو ولا تظهر من الأفواه ، وإنما الذي يبدو منها هو الكلام المترتب على البغضاء ، فقد أطلق السبب ، وهو "البغضاء" وأريد منه المسبب وهو الكلام الدال على الكراهية ، والعلاقة هنا هي السببية ، والقرينة الدالة على أن " البغضاء " مستعملة في غير ما وضعت له هو قوله تعالى " بدت " و" أفواههم " .

وسر العدول عن الحقيقة إلى المجاز هو المبالغة في الكلام الدال على العداوة وتصويره بصورة البغضاء ، للإشعار بأن الذي بدا

من أفواههم هو ذات البغضاء على الرغم من محاولتهم إخفاءها في صدورهم ، وذلك دليل على أنها تمكنت من قلوبهم وملأت نفوسهم ، حتي أبت إلا أن تفيض فتنحدر من ثنايا أفواههم ، فكأنه قيل : قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم لأن سببها هو البغضاء وقد ملأت قلوبهم .

كما أن تصوير السبب ، وإطلاق اسمه عليه ، فيه تنفير أي تنفير من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة .

وكذلك الإيجاز المعجز ، ويتجلى ذلك بالموازنة بين الحقيقة وهي : " قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم " وبين المجاز وهو : { قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } .

<u>الثاني</u>: في قوله عز وجل :" وما تخفي صدورهم أكبر " ، فالمجاز في لفظ " صدورهم " وإنما كانت الصدور مجازا مرسلاً عن القلوب ، لأن القلوب هي مجمع الأضغان ، ومحل الأحقاد ، فقد أطلق المحل وهو الصدور ، وأريد الحال وهو القلوب ، والعلاقة هنا " المحلية " ، والقرينة حالية يدل عليها السياق .

والمجاز في الآية الكريمة قد أكد المعني المراد وقواه فكأنه قيل: إن هذه القلوب قد تضخمت بما فيها من الكراهية ، لأنها فاضت على الصدور فملأتها وذلك هو تبيان كون المجاز كدعوى الشيء ببينة .

كما صور الحال بصورة المحل ، وأطلق اسمه عليه ، وفي ذلك تنبيه على شدة كراهيتهم للمسلمين وتحذير من الانخداع بهم .

ومن محاسن المجاز المرسل أن المعني إذا عبر عنه باللفظ الدال على الحقيقة ، حصل كمال الغلم به من جميع وجوهه ، وإذا عبر عنه بلفظ المجاز لم تعرف تلك الوجوه على جهة الكمال ، فيحصل عن المجاز تشويق إلى تحصيل الكلام . وهذا عامل نفسي ، لأن في هذا التجوز استثارة لمكامن الشوق ، وجذباً للانتباه ، ووعي ما في النص الأدبي من وجوه الحسن .

ومنها : أنه قد يكون لفظ المجاز أخف من الحقيقة على اللسان ، لخفة اللفظ المفرد على اللسان والسمع ، أو لخفة وزنه ، أو لسلامته ، وذلك يقتضي السهولة ، فيعدل المتكلم إلى لفظ المجاز لهذا . ومن أمثلة ذلك إطلاق (العين) على الربيئة ، وهو الرقيب ، فإن العين أخف من الربيئة على السمع واللسان ، وهي أيضا أعرف لدى السامع والقارئ من لفظ (الربيئة) .

وقد تكون لفظة المجاز أصلح للقافية إذا كان الكلام شعراً ، أو للسجع إذا كان الكلام نثراً ، وقد لا يصلح لفظ الحقيقة لتحقيق هذا الغرض .

وقد تكون الكلمة المجازية مألوفة الاستعمال ، والحقيقة غريبة أو وحشية ، فيكون لفظ المجاز أخف ، ويحصل به من الأنس ما لا يحصل بلفظ الحقيقة .

والمجاز المرسل يعين على توسيع اللغة ، والافتنان في التعبير ، ويساعد الأديب على إيراد المعني الواحد بصور مختلفة .
وكثيراً ما يعين المتكلم على تحقيق غرضه من التعظيم أو التحقير ، كقولك : رأيت القاضي ، تريد : طالب القانون .

ويفيد المجاز المرسل التأثير في النفس والتنبيه إلى جوانب مخصوصة يجدر التنبه إليها ، وذلك كما في قوله تعالى : { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ } أي أناملهم ، وعبر بالأصابع إشعاراً بشدة رعبهم ، وكقوله تعالى : {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } فقد عبر عنهم باليتامى ، إشارة إلى وجوب المسارعة بدفع الأموال إليهم ، في وقت هم فيه كأن اسم اليتيم باق فيهم لم يفارقهم .

وهكذا لا يلجأ إلى المجاز إلا لتحقيق غاية في صناعة الكلام من أمثال الغايات السابقة ، فإذا لم يحقق المجاز غاية ، ولم يكن له أثر في تقويم اللفظ أو تحسين المعني ، فلا ينبغي العدول عن الحقيقة .

هذا وقد أشار صاحب " المفتاح " – رحمه الله تعالى – إلى أن المجاز المرسل منه مفيد كما مر ، ومنه خال عن الفائدة . وجعل الخالي عن الفائدة : ما استعمل في ما هو أعم مما هو موضوع له كالمرسن إذا استعمل في الأنف مطلقاً لا بقيد كونه لمرسون [1] ، وهو في الأصل موضوع له بقيد كونه مرسونا لا في مطلق الأنف . وكالمشفر في نحو قولنا غليظ المشافر إذا قامت قرينة على أن المراد الشفة لا غير ، مع أن المشفر موضوع لشفة البعير لا لمطلق الشفة .

ووضح القزويني رأي عبد القاهر في ذلك بأنه إذا قصد بذلك التشبيه صار اللفظ استعارة ، كقولهم في موضع الذم : غليظ المشافر ، فإنه بمنزلة أن يقال : كأن شفتيه في الغلظ مشفرا بعير .

وبهذا يتضح أن اللفظ الواحد يجوز كونه باعتبار ما يصدق عليه على وجه التجوز استعارة لأنه يفيد أن معناه المجازي شبه بمعناه الأصلي ، ويجوز اعتباره مجازاً مرسلاً لإفادته معني مطلقاً باعتبار أصله ، ومقيدا باعتبار المراد منه ، فاللفظ الواحد يكون مرسلا واستعارة باعتبارين مختلفين .

---

(١) المرسون هو الحيوان الذي جعل رأسه في الرسن (حبل يجر به) ، ومرسون : اسم مفعول من رسن .

المناقشة

أ- بين المعني الحقيقي ، والمعني المجازي ، والعلاقة ، والقرينة فيما يلي :

١- قول الله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ } .

٢- قول الله تعالى : {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } .

٣- قول الله تعالى : {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} .

٤- قول الله تعالى : {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ }.

ب- بين المجاز العقلي ، وعلاقته وقرينته فيما يلي :

١- قول الله تعالى : { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

٢- قول الله تعالى:" { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا }.

الفصل الرابع

" الاستعارة "

الفصل الرابع

الاستعارة

الاستعارة في اللغة مصدر استعار الشيء ، أي طلب من صاحبه أن يعيره إياه ، قال العباس بن الأحنف :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر * عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكي بها * أرأيت عينا للبكاء تعار

فمعنى الاستعارة في المجاز هو معناها في الحقيقة ، والثاني أصل الأول وأساسه ، فالرجل يستعير من الرجل بعض ما ينتفع به ، مما عند المعير وليس عند المستعير ، ومثل هذا لا يقع إلا بين شخصين بينهما تعارف وتعامل ، فتقضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر . فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع .

ولعل أقدم من ذكر الاستعارة من علماء الأدب العربي الجاحظ (٢٥٥ هـ) ، فقد قال في قول الشاعر :

وطفقت سحابة تغشاها * تبكي على عراصها عيناها

... جعل المطر بكاء السحاب على طريق (الاستعارة) وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه [1] .

---

(١) البيان والتبيين : ١ : ١٥٣ .

وجاء بعده عبد الله بن المعتز (٢٩٦ هـ) فكتب كتابة (البديع) وجعل أول كلام له بعد المقدمة في الاستعارة ، فقال : من الكلام البليغ قوله تعالى : {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [1] ... وبعد ذلك تكلم ابن المعتز في فنون البديع وجعل الاستعارة أول فن منها .

وتوالي بعد ذلك العلماء والنقاد يبحثون الاستعارة فيما يبحثون من فنون البيان ، حتي أصبحت أهم أبواب علم البيان ، وأخذت وضعها بين موضوعاته وكثر الكلام في تعريفها وأقسامها .

يقول "عبد القاهر الجرجاني " في الاستعارة : (هي) أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به ، فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول :

رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء ، فتدع ذلك وتقول " رأيت أسداً " .

ويعرف جمهور البيانيين الاستعارة بأنها : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة ما وضع له .

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز : ١٧ .

فإن كانت العلاقة بين المعنيين (المنقول عنه والمنقول إليه) المشابهة) كان التعبير استعارة ، وإن كانت (غير المشابهة) كان مجازاً مرسلاً [1] كما سبق إيضاحه .

وإذا كان التشبيه يعتمد على أركان أربعة هي : المشبه ، والمشبه به ، ووجه الشبه ، وأداة التشبيه ؛ فإن الاستعارة أصلها تشبيه حذف منه الوجه ، والأداة ، وأحد الطرفين ، فإن كان المحذوف هو المشبه كانت الاستعارة تصريحية ، وإن كان المحذوف هو المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه كانت الاستعارة مكنية .

فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عد أصلاً وعدت الاستعارة فرعاً له ، ومنذ ابتداء البحث فيهما والعلماء يخلطونهما فيجعلون بعض الاستعارات تشبيهات ، وكثيراً ما يعكسون، فيطلقون على بعض التشبيهات لقب الاستعارة فقول الوأواء الدمشقي :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

عده أبو هلال العسكري من أتم التشبيه [2] ، لأنه شبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد : الدمع باللؤلؤ ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد ، والأنامل بالعناب لما فيهن من الخضاب ، والثغر بالبرد .

---

(١) المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني : ٣٥٤ ، ومفتاح العلوم للسكاكي : ١٥٦ .
(٢) كتاب الصناعتين : ٢٥١ .

وكثير من العلماء ينحون هذا المنحني ، كأنهم لا يفرقون بين التشبيه والاستعارة وبعضهم يري أن التشبيه المضمر الأداة استعارة ، فلا يكون تشبيها إلا إذا كانت فيه تلك الأداة مميزة له .

وعلى هذا جعلوا التشبيه ضربين : أحدهما تشبيه تام ، والآخر تشبيه محذوف ، فالتشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به ، والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه به دون المشبه ويسمي استعارة .

والوجه الذي يقتضيه القياس في رأي عبد القاهر ألا تطلق الاستعارة على نحو قولنا :" زيد أسد " و " هند بدر " ، ولكن نقول هو تشبيه ، فإذا قيل " هو أسد " لم تقل استعار له الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد ، وتقول في قولك :" عنت لنا ظبيه " وأنت تريد امرأة ، و " وردنا بحراً " وأنت تريد الممدوح ، إنه استعارة . وإن قلت في القسم الأول إنه تشبيه كنت مصيبا من حيث تخبر عما في نفس المتكلم وعن أصل الغرض . وإن أردت تمام البيان قلت أراد أن يشبه المرأة بالظبية ، فاستعار لها اسمها مبالغة [1] .

وبهذا اتضحت معالم الاستعارة واستقلت عن أصلها الذي استمدت منه وهو التشبيه ، وقيل إن دلالة التشبيه دلالة وضعية ، وإن

(١) أسرار البلاغة : ٢٨٠ .

دلالـة الاسـتعارة دلالـة عقليـة ، وألحقت بيـاب المجـاز ، بل كانـت أهم فروع ذلك المجاز .

هذا ، وللاستعارة أركان ثلاثة :

مستعار منه (ذات المشبه به) الذي أخذ منه اسمه وأعطي للمشبه .

مستعار له هو (ذات المشبه) فهو كالإنسان يستعار له ثوب ليلبسه .

ومستعار وهو اللفظ المنقول ، وهو كالثوب المستعار من صاحبه لمن يرتديه .

أقسام الاستعارة

تنقسم الاستعارة باعتبار ذكر أحد الطرفين إلى تصريحية ومكنية .

الاستعارة التصريحية :

هي التي صرح فيها بلفظ المشبه به كقوله تعالى :

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}

فالاستعارة في الآية الكريمة في كلمتي " الظلمات ، والنور . فقد شبه الضلال بالظلمات بجامع عدم الاهتداء في كل ، ثم استعير لفظ الظلمات للضلال على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . كما شبه الهدى بالنور بجامع الاهتداء في كل ، ثم استعير لفظ النور للهدى على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أيضاً . والقرينة : "كتاب أنزلناه إليك " ، فإن القرآن الكريم نزل لإخراج الناس من الضلال إلى الهدي، ولم ينزل لإخراجهم من ليل حقيقي إلى نهار حقيقي .

وقوله عز وجل : **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** ، والاستعارة في " الصراط المستقيم " فقد شبه الدين الحق بالطريق المعتدل بجامع أن كلا منهما يوصل إلى المطلوب ، ثم استعير الصراط المستقيم للدين الحق ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة حالية لأن المراد تصوير الدين القويم بالطريق المستقيم .

وسميت هذه الاستعارة تصريحية لأن المشبه به مصرح به في الكلام كما سميت أصلية لأن المستعار اسم جامد .

ومن ذلك قول النبي - صلي الله عليه وسلم - :" **لا تستضيئوا بنار المشركين** " فالنار مستعارة لرأيهم ومشورتهم بجامع الاسترشاد في كل ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة هنا – أيضاً – حالية ، لأن الرسول صلي الله عليه وسلم لا ينهي عن الاستضاءة بأي نار ، وإنما ينهي عما يشابهها من الراي والمشهورة .

وإذا قال قائل : **سلمت اليوم على حاتم الطائي واستمعت إلى سحبان بن وائل** ، يريد جوادا وبليغاً ، نجده قد شبه الجواد بحاتم والبليغ بسحبان ، ثم تناسي التشبيه فيهما وادعى أن الرجل فرد من أفراد حاتم وداخل في جنسه ، ثم استعار لفظ حاتم من معناه الحقيقي (الشخص المشهور) للرجل الكريم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . وادعى أيضاً أن الرجل الكريم البليغ فرد من أفراد سحبان بن وائل فاستعاره له ، والجامع بينهما الإبانة والإفصاح في كل وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية أيضاً .

والقرينة في كل من الاستعارتين هي كلمة (اليوم) .

وإلى جانب **الاستعارة التصريحية الأصلية** نجد قسماً آخر هو **الاستعارة التصريحية التبعية** ، وذلك إذا لم يكن المستعار فيها اسم

جنس غير مشتق ، ويدخل في هذا الفعل والاسم المشتق والحرف ، وسميت تبعية لأنها تابعة لاستعارة أخرى تجري في المصدر .
فاستعارة الفعل نحو قول الله تعالى : {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ } (1) .

فالمعني على الحقيقة (بل نورد الحق على الباطل فيذهبه) فقد شبه الإيراد بالقذف ، واستعير لفظ المشبه به للمشبه ، ثم اشتق من القذف بمعني الإيراد " قذف " بمعني " أورد " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، واستعار الدمغ للمحو بجامع الإذهاب في كل . واشتق من الدمغ الفعل " دمغ " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية أيضاً .

واستعارة المشتق نحو :" حكم على قاتلك بالسجن " من القتل بمعني الضرب الشديد.

واستعارة الحرف نحو قوله تعالى : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ } " فإن لفظ " في " موضوع لتلبس الظروف بالمظروف الحقيقيين نحو الماء في الكوب .

وفي الآية الكريمة لا يصلح ما بعد " في " أن يكون ظرفاً حقيقياً لأن الجذوع لا تصلح أن تكون ظرفاً حقيقياً للمصلوبين .

---

(١) دمغه : شجه حتي بلغت الشجة دماغه .

فقد شبه تلبس الجذوع بالمصلوبين بتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين بجامع التمكن في كل ، ثم استعيرت " في " الموضوعة لتلبس الظروف بالمظروف الحقيقيين لتلبس الجذوع بالمصلوبين على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هي دخول " في " على الجذوع .

وإذا كانت الاستعارة في الفعل والمشتق قد سميت تبعية لأنها تابعة لاستعارة تسبقها في المصدر الذي يؤخذ منه الفعل أو الصفة ؛ فإنها سميت تبعية في الحرف – كما يذكر الخطيب في الإيضاح – لأنها تابعة لتشبيه مدخول الحرف الآن بما كان حق أن يدخل عليه [1].

---

(١) الخطيب : الإيضاح ، وقد ذهب في ذلك مذهب الزمخشري في كتابه الكشاف ، انظر : الكشاف ٣ : ٣٠٩ .

مناقشة

استخرج ما تتضمنه الشواهد التالية من صور استعارية وعلق على كل منها من خلال فهمك لهذه الدراسة :

١- قول الشاعر :

فلم أر قلبي من مشي البحر نحوه * ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد

٢- قول الله تعالى :

{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} .

٣- وقول تعالى :

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا } .

٤- قول الشاعر :

في الخد أن عزم الخليط رحيلا * مطر يزيد به الخدود محولا[1] .

٥- قول الشاعر :

جمع الحق لنا في إمام * قتل البخل وأحيا السماحا.

٦- قول الشاعر :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت * شرفاته قطع السحاب الممطر.

٧- قول الله تعالى :

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ } .

---

(١) أن عزم : إذ عزم . الخليط : هو الذي يخالطك وأراد به هنا الحبيب ، ومحول الخدود : ذهاب نضارتها وشحوبها .

٨- قول الله تعالى :

{ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا } .

٩- قول الشاعر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحاً * فلسان حالي بالشكاية أنطق.

١٠- قول الشاعر يخاطب طائراً :

أنت في خضراء ضاحكة * من بكاء العارض الهتن [١].

١١- قول الشاعر :

أما ترى ظفر حلوا سوى ظفر * تصافحت فيه بيض الهند واللمم [٢].

---

(١) خضراء : روضة خضراء . العارض الهتن : السحاب الكثير الأمطار .
(٢) الظفر : الفوز ، بيض الهند : السيوف . اللمم : الشعر الذي يجاور شحمه الأذن ومفرده لمة .

الاستعارة المكنية

أما الاستعارة المكنية فهي التي يحذف منها المشبه به ، ويدل عليه بذكر خاصية من خواصه أو لازمة من لوازمه ، كقول الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع [1].

فقد شبه الشاعر " المنية " بالسبع من حيث إن كلا منهما يغتال النفوس بالغلبة والقهر دون تفرقة بين نافع وضار ، ثم استعار في نفسه السبع للمنية ، ثم حذف السبع ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار ، والقرينة إثبات الأظفار للمنية ، وهذه القرينة تسمي استعارة تخييلية .

وكقول شاعر آخر :

وإذا العناية لا حظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان.

فقد شبهت العناية بإنسان تشبيها مضمراً في النفس ، ثم تنوسي التشبيه ، وادعى أن المشبه من أفراد المشبه به ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " العيون " ، والقرينة هي : إثبات العيون للمشبه الذي هو " العناية " وهي أيضاً استعارة تخييلية .

---

(١) المنية : الموت . ألفيت : وجدت . التميمة : خرزة تعلق في العنق يظنون أنها تصونهم من الجن على زعمهم الفاسد .

وقد قال الزمخشري في إيضاح بلاغة الاستعارة المكنية :" من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده فينبهوا بذلك الرمز على مكانه ... ويكون ذلك لقصد التأكيد والمبالغة ، ويكون ذلك لخطاب الذكي دون الغبي "(١)

وفي تفسير قول الله تعالى : {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ} قال الزمخشري :" فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلت : حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصل بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها " (٢) .

هذا ، وتسمي الاستعارة المكنية أيضاً استعارة بالكناية ، ومذهب جمهور البلاغيين القدماء في ذلك : أن الاستعارة بالكناية هي اسم المشبه به المستعار في النفس والمرموز إليه بإثبات بعض لوازمه للمشبه ، وذلك كقول الله تعالى : {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}، فقد شبه الذل بطائر ، وحذف هذا المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه .

---

(١) الزمخشري : الكشاف : ١ : ٥٧ .
(٢) نفسه .

فالاستعارة المكنية في الآية الكريمة هي : لفظ " طائر " المستعار في النفس للمشبه " الذل " ثم حذف هذا المستعار وأثبت لازمه للمشبه " الذل " ، وقرينتها إثبات لازم المشبه به للمشبه .

ومن ذلك قول المتنبي :

طلبتهم على الأمواه حتى * تخوف أن تفتشه السحاب .

فقد شبه السحاب بإنسان ثم حذفه ، وأثبت لازمه (التخوف) للمشبه (السحاب) فتكون الاستعارة بالكناية في بيت المتنبي عند الجمهور هي : لفظ الإنسان المستعار في النفس للسحاب ، ثم حذف هذا المستعار ، ودل عليه بإثبات لازمه للمستعار له (السحاب) ، والقرينة هنا إثبات التخوف للسحاب .

فالاستعارة المكنية عند جمهور البلاغيين هي اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المدلول عليه بإثبات لازمه للمشبه ، وهذا الإثبات هو قرينة الاستعارة المكنية ، وهو استعارة تخييلية .

وإذا تعددت لوازم المشبه به في الأسلوب كانت القرينة – في نظرهم – هي أقواها في الدلالة عليه ، أما ما عداها فهو ما يطلقون عليه مصطلح " الترشيح " كما سيأتي تفصيله في الصفحات التالية .

أقسام الاستعارة باعتبار ملائمها

وتنقسم الاستعارة باعتبار ملائمها إلى : -

(١) الاستعارة المُطْلَقة :

وهي التي لم تقترن بما يلائم المستعار منه أو المستعار له كقوله تعالى : { وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أنزِلَ مَعَهُ } [١]

فالمستعار في كلمة " النور " فهي مستعارة للهدى بجامع الاهتداء في كل منهما والقرينة هي { النُّورَ الَّذِيَ أنزِلَ مَعَهُ }، والاستعارة مُطْلَقة لأنها لم تقترن بما يلائم المستعار منه أو المستعار له .

وقوله جل شأنه : { كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور }.

والاستعارة في " الظلمات ، النور – كما سلف الذكر – " فقد استعير لفظ الظلمات لمعني " الضلال " واستعير لفظ النور لمعني الهداية والإرشاد . ولم يذكر شيء يلائم المستعار أو المستعار منه . والقرينة " كتاب أنزلناه إليك " فإن القرآن الكريم نزل لإخراج الناس من الضلال إلى الهدى ، ولم ينزل لإخراجهم من ليل حقيقي إلى نهار حقيقي .

ومن الاستعارة المطلقة – أيضاً – قول المتنبي يخاطب بدر بن عمار مادحاً :

---

(١) سورة الأعراف : من الآية : ١٥٧ .

يـا بـدر يـا بحـر يـا غمامـة يـا * ليث الشري يا حمام يا رجل [1].

فالشـاعر يقول لممدوحـه : أنت فـي جمالـك بـدر ، وفـي جـودك بحر وسحاب ، وفي إقدامك وشجاعتك ليث ، وفي إقدامك علـى قتل الأعداء موت ، وقد جمعت هذه الصفات وأنت رجل .

والاستعارة في كل من بدر ، وبحر ، وغمامة ، وليث الشري ، وحمام ، والقرينة النداء بـ " يا " ، وهي مطلقة لعدم اقترانها بما يلائم المشبه أو المشبه به .

وإذا كانت الاستعارة المطلقة في ذلك لم تقترن بما يلائم أحد طرفيها ، فإنها – أيضاً – تقترن بما يلائم كل منها .

ومن أمثلة هذا الضرب الثاني ، الذي قرنت فيه الاستعارة بما يلائم طرفيها معاً .

قول الشاعر :

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يضر * ظواهر جلدي وهو للقلب جارح.

فقد استعار السهم للطرف ، والريش من ملائمات المشبه به ، والكحل من ملائمات المشبه .

---

(١) الشري : طريق في بلاد العرب كثير الأسد وإليه تنسب الأسود ، والحمام بكسر الحاء : الموت .

(٢) الاستعارة المجردة

وهي التي تقترن بما يلائم المستعار له (المشبه) ، كقول الشاعر :

يـؤدون التحيـة مـن بعيـد * إلـى قمـر مـن الإيـوان بـاد.

فقوله (من الإيوان باد) تجريد ، لأنه من ملائمات الرجل الذي هو المشبه ، لا من ملائمات القمر ، الذي هو المشبه به ، وكقول القائل : رأيت أسدا يتكلم ، ولقيت بحراً يضحك .

ومن الاستعارة المجردة قول الله تعالى :

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}.

فاللباس في الآية الكريمة مستعار لما غشي هذه القرية من العذاب بجامع الإحاطة في كل .

وقوله تعالى : (أذاقها) دون كساها يلائم المستعار له (العذاب) لأن المراد بالإذاقة إصابتهم بالعذاب . واستعمال الإذاقة في الإصابة استعارة جرت مجرى الحقائق لاستخدامها كثيراً في الشدائد والبلايا . وقد بنيت الاستعارة على أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن عموم اللباس له .

(٣) الاستعارة المرشحة :

وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه . كقوله تعالى : {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}.

والاستعارة في " اشتروا " .

فقد شبه اختيار الضلالة على الهدي بالاشتراء بجامع ترك مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، واشتق من الشراء " اشتروا " بمعني اختاروا ، والقرينة استحالة تعلق الاشتراء الحقيقي بالضلالة والهدى .

وقوله تعالى :" فما ربحت تجارتهم " يلائم المشبه به ، ومن ثم فالاستعارة مرشحة .

وقول الشاعر

ينازعني ردائي عبد عمرو * رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني * ودونك فاعتجر منه بشطر [١]

فالشاعر يقول : إن عبد عمر ينازعني سيفي الذي أدافع به عن نفسي وعرضي ، ثم التفت إليه بقوله : تمهل فسأوزع سيفي بيني وبينك ، فأحتفظ لنفسي بقائمه الذي بيدي ، وأمنحك صدره الذي يغيب في رأسك .

والاستعارة في " ردائي " بمعني سيفي .

---

(١) رويدك : اسم فعل بمعني أمهل ، والكاف حرف خطاب ، ودونك : اسم فعل بمعني خذ ، والاعتجار لف الرأس بثوب ونحوه ، وأراد بالشطر الذي ملكت يمينه : مقبض السيف ، والمراد بالشطر الثاني صدر السيف . وفي رويدك التفات من الغيبة إلى الخطاب .

فقد شبه السيف بالرداء بجامع الحفظ والصيانة في كل منهما . ثم استعير " الرداء " للسيف ، والقرينة الحالية . وذكر الاعتجار وهو ملائم للمستعار منه وهو الرداء ترشيح .

وقول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس * كلاكله أناخ بآخرينا

فقد شبه الدهر بالجمل ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الكلاكل ، والقرينة إثبات الكلاكل للدهر ، وفي ذكر أناخ ترشيح .

وسميت هذه الاستعارة مرشحة لأن الترشيح معناه التقوية ، وذكر ملائم للمشبه به يبعدها عن الحقيقة ، ويقوي فيها دعوى الاتحاد التي هي مبني الاستعارة .

هذا والترشيح أقوى ، ثم الإطلاق ، ثم التجريد ، وسبب ذلك أن الاستعارة . مبنية على تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه أصبح فردا من أفراد المشبه به وداخلا في جنسه ، والذي يعين على تحقيق هذا الادعاء ذكر أوصاف المستعار منه .

ولذا كانت المرشحة أقوى الاستعارات الثلاث ، ولذا – أيضاً – يتضح سبب ضعف الاستعارة المجردة ، حيث إن التجريد يناقض دعوى الاتحاد الذي تقوم عليه الاستعارة .

أما كون الاستعارة المُطلقة أوسطها فلأنها باقية على أصلها دون اقترانها بما يقويها أو يضعفها .

ولهذا كانت الاستعارة المرشحة مقصد أئمة الشعراء في مديحهم أو هجائهم ، حيث يخيلون أن المستعار مستعمل في حقيقته .

ومنطلق ذلك أنه مبني على تناسي التشبيه ، حتى قد يستعيرون الوصف المحسوس للمعقول ، ويجعلون تلك الصفة كأنها ثابتة لذلك الشيء حقيقة ، وكأن الاستعارة لم توجد أصلا ، كقول أبي تمام :

ويصعد حتي يظن الجهول * بأن له حاجة في السماء

فقد استعار لفظ العلو المحسوس ، وهو الصعود لعلو المنزلة ووضع الكلام وضع من يذكر علوا مكانيا ، ولولا قصده نسيان التشبيه وإنكاره وجعله صاعدا في السماء صعودا مكانيا لم كان لهذا الكلام وجه [1].

---

(١) الطراز : ١ : ٢٥٤ .

المجاز المركب أو التمثيل
(الاستعارة التمثيلية)

وقد تكون الاستعارة مفردة كما سبق ، وقد تكون مركبة ، وتسمي في حالة التركيب (التمثيل) أو (الاستعارة التمثيلية) .

فالاستعارة التمثيلية هي اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعني الحقيقي .

ومعني ذلك أنها مجاز مركب علاقته المشابهة .

قال الشاعر وقد أراد أن يعبر عن كونه كان مقدما غند صاحبه ويتمني أن لا يؤخره ، وكان مقربا فلا يبعده ، ومجتبي فلا يجتنبه ، فعبر عن تلك المعاني بقوله :

ألم تك في يمني يديك جعلتني * فلا تجعلني بعدها في شمالكا

ولو أنني أذنبت ما كنت هالكا * على خصلة من صالحات خصالكا

فعدل عن أن يعبر بما أراد ، ولكنه مثل له بأن قال:إنه كان في يمني يديه ، فلا يجعله في اليسري ؛ ذهاباً نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعني يجريان مجري المثل والإبداع في المقالة .

وكقول الشاعر أيضاً :

راح القطين من الأوطان أو بكروا * وصدقوا من نهار الأمس ما ذكروا

قالوا لنا وعرفنا بعد بينهم * قولا فما وردوا عنه ولا صدروا

كـان يمكـن أن يسـتغني فيـه عـن قولـه (فمـا وردوا عنـه ولا صـدروا) بـأن يقـول : (فمـا تعـدوه) أو (فمـا تجـاوزوه) ، ولكـن لا يكون لمثل هذا القول من موضع الإيضـاح وغرابـة المثل مـا لقولـه : (فمـا وردوا عنه ولا صدروا) .

وتأمل قول الله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}.

والاستعارة في :" فنبذوه وراء ظهورهم " .

شـبهت هيئـة مـن أخـذ عليهم الميثـاق فـأهملوه ، ولـم يأخـذوا بـه بهيئـة مـن كـان معـه شـيء تافـه لا قيمـة لـه فـي اعتبـاره فطرحـه وراء ظهـره ، بجـامع الهيئـة الحاصـلة مـن شـيء يهمـل احتقـارا لشـأنه ، ثـم استعير اللفظ المركب الموضوع للمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والقرينة الحالية .

و قول الله تعالى : {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}.

فهنا نهي عن البخل ، جاء في صورة تحذير للإنسان أن يجمع يـده وعنقـه فـي غـل ، ونهـي عـن الإسـراف جـاء فـي صـورة تحـذير

للإنسان أن يبسط يديه بسطا متناهياً ، وقد شبهت هيئة البخيل بهيئة المغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده إلى شيء ، وهيئة المسرف بهيئة الباسط يديه بسطاً متناهيا ، ثم تنوسي التشبيه ، وصار المشبه كأنه فرد من أفراد المشبه به ، ثم استعير المركب الدال على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وانظر إلى قول الوليد بن يزيد لمروان بن محمد عندما بلغه توقفه عن البيعة :" أما بعد . فإني أراك تقدم رجلا ، وتؤخر أخرى . فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام " .

فقد شبهت هيئة تردده في قبول البيعة بين الإقدام والإحجام بهيئة رجل يتردد في الدخول ، فتارة يقدم رجله ، وتارة يؤخرها بجامع الحيرة في كل . ثم استعير اللفظ المركب الموضوع للمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة حالية .

ومتى اشتهرت الاستعارة التمثيلية ، وكثر استعمالها صارت مثلا ، والأمثال لا تغير ، فلا يلتفت فيها إلى مضاربها ، إفرادا وتثنية وجمعا ، وتذكيراً وتأنيثا ، بل يشبه المثل بمورده ، فينقل لفظه كما هو بلا تصرف ، فتقول لرجال ضيعوا الفرصة على أنفسهم ثم جاءوا يطلبونها " الصيف ضيعت اللبن " بتاء مكسورة ، لأنه في الأصل خطاب لامرأة .

وتكون الأمثال نثراً كما سبق ، كما تكون شعراً ، كما في قول الشاعر :

أوردها سعد وسعد مشتمل * ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وهو يضرب لمن قصر في الأمر ، وأصله أن مالك بن زيد كانت له إبل ، فلما تزوج كلف أخاه سعدا أن يورد الإبل ، فلما أوردها لم يحسن القيام عليها ، والرفق بها ، وكان ملتفا بشملته ، فمنعه ذلك من النشاط ، فقال مالك : (أوردها سعد) ، والمثل هو الشطر الأخير من البيت ، ولو ضرب لاثنين مقصرين أو لأكثر لقيل : (ما هكذا يا سعد) دون تغيير في نصه .

وقول الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها * فإن القول ما قالت حذام

فقد شبهت هيئة الرجل الذي لا يقول إلا الحق ، ولا يخبر إلا بالصدق ، بهيئة المرأة المسماة " حذام " بجامع الصدق في كل ، واستعير اللفظ المركب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة الحالية .

وقول الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم

فقد شبهت حال من ينكر الحسن من الأمور لقصور عنده ، بحال من ينكر وجود الشمس لرمد أصابه ، ومن ينكر طعم الماء لمرض يغير الطعوم في فمه ، بجامع الجهل بحسن الأشياء في كل ، ثم استعير اللفظ المركب الدال على المشبه به على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة الحالية .

والآن علق تعليقا بلاغيا على ما يلي مبينا وجه الاستعارة التمثيلية في كل موضع :

(أ) تـــرى الفتيـــان كالنخـــل * ومـــا يـــدرك مـــا الـــدخل

فيمن له مظهر حسن ولا خير فيه .

(ب) تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

لمن يعرض له مالا يشتهيه .

(جـ) إن الأفاعي وإن لانت ملامسها * عند التقلب في أنيابها العطب

فيمن امتلأ قلبه عداوة ، فلا يؤمن جانبه .

(د) وليس يصح في الأذهان شيء * إذا احتـاج النهـار إلـى دليـل

لمن لا يعترف بالفضل لأصحابه .

(هـ) بـالملح نصـلح مـا نخشـي تغيره * فكيف بالملح إن حلت به الغير

لمن فسدت حاله ممن هو قدوة لغيره .

(و) من كان فوق محل الشمس موضعه * فليس يرفعه شيء ولا يضع

لمن علت منزلته فلم يتأثر بشيء .

بلاغة الاستعارة التمثيلية

وبلاغة الاستعارة التمثيلية تتحقق في إصابة الشبه بين الهيئتين ، وإذا كانت (مثلا) تحققت في إصابة المضرب المناسب لها ، وهذا يقتضي علما بأساليب العربية وطرق استعمالاتها ، فربما استعمل المتكلم المثل في غير المعني اللائق به فتفقد الاستعارة بلاغتها .

بلاغة الاستعارة ومحاسنها بوجه عام :

هناك شروط لحسن الاستعارة ، إذا تواجدت جاءت الاستعارة حسنة دقيقة ذات وزن وتأثير في بلاغة الكلام ، من هذه الشروط :

١- أن يتقرر الشبه بين المستعار منه والمستعار له ، فإن كان الشبه ضعيفا لم تحسن الاستعارة ، فمثلا : قد تقرر في العرف الشبه بين النور والعلم ، كما ظهر واشتهر الشبه بين الظبية والمرأة ، وبينها وبين الشمس ، فإذا قلت : أقبستني نوراً أضاء أفقي تريد علما كان حسنا حسنه إذا قلت : علمك نور في أفقي .

وهذا رأي عبد القاهر الجرجاني ، ويرى غيره أن التشبيه لا يحسن إذا قوي الشبه بين الطرفين .

٣ـ ألا تبعد الاستعارة جدا فتصعب على الفهم ، ولا تقرب جدا فتكون قريبه مبتذلة ، وكل الاستعارات البليغة وسط بين البعد الشديد والقرب الشديد ، ولذلك عيب على أبي تمام قوله :

جـاري إليـه البـين وصـل خريـدة ماشت إليه المطل مشي الأكبد [١]

الهاء في (إليه) راجعة إلى المحب ، يريد أن البين ، ووصل الخريدة (وهي المرأة الجميلة) تجاريا إليه ، فكأنما أراد أن يقول : أن البين حال بينه وبين وصلها ، فعدل إلى إن جعل البين والوصل تجاريا إليه ، وأن الوصل جري إليه يريده فجرى البين ليمنعه ، فجعلهما متجاريين ، ثم أتي بالمصراع الثاني بنحو من هذا ، فقال : ماشت إليه المطل مشي الأكبد ، فالهاء هنا راجعة إلى الوصل ، أي : لما عزمت على أن تصله عزمت عزم متثاقل مماطل ، فجعل عزمها مشياً وجعل المطل مماشيا لها .

قال الأمدى في كتابه " الموازنة " معلقا على ذلك :

فيا معشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ، خبرونا كيف يجاري البين وصلها ؟ وكيف تماشي هي مطلها ؟ ألا تسمعون ؟ ألا تضحكون ؟ .

---

(١) الأكبد : الرجل البطيء السير . والمرأة كبداء .

٣- أن تبعد عن الحقيقة بترشيحها تقوية لدعوى الاتحاد بين الطرفين وكلما كان الترشيح أكثر كانت الاستعارة أقوى بلاغة حتى ليبلغ الأمر بالأديب أن يبني كلامه على المستعار منه كما في قول الشاعر :

ويصعد حتي يظن الجهول * بأن له حاجة في السماء .

٤- ولما كانت الاستعارة مبينة على التشبيه كان كل شيء يحسن التشبيه به يحسنها ، ومن ذلك كثرة التفصيل في وجه الشبه ، فإذا كان الجامع كثير التفصيل كانت الاستعارة حسنة . وكذلك إذا كان المستعار له نادر الحصول في الذهن لقلة وجوده أو لعدمه ، أو كان غريبا لطيفاً .

٥- ألا تشتم رائحة التشبيه ، ولذلك ضعفوا الاستعارة في قول الشاعر :

لا تعجبوا من بلى غلالته * قد زرّ أزراره على القمر

فهذا لفظ دال على المشبه ، وهو الضمير في (أزراره) ، فالكلام لم يبعد عن التشبيه ، وهنا ثلاثة ضمائر للمشبه ؛ الضمير في (غلالته) والضمير المستتر في (زر) ، والضمير في (أزراره) .

فإذا تحققت هذه الشروط في الاستعارة ، اجتمعت لها مقاييس الجودة وأصبحت من أعمدة الكلام ، فعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل إلى تحسين النظم والنثر وتحقيق الأغراض

التي لا يستطيع الأديب بلوغها بالحقيقة أو التشبيه أو غيرهما من فنون البيان ، ولولا أن الاستعارة تفيد مالا تفيده الحقيقة من الأغراض لكانت الحقيقة أولي منها استعمالا .

وحيث اتضح لك أن الاستعارة تبدأ من حيث ينتهي التشبيه ، فقد اتضح أنها أبلغ منه ؛ ذلك لأنها تؤكد المعني في الأذهان ، فهي نوع من المجاز ، وهي كدعوى الشيء ببينة ، ومبني الاستعارة – كما علمت – على تناسي التشبيه ، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، فيخيل إليك أنه هو ، حتي يتضح أن ذلك قائم على التشبيه والادعاء .

ولتفصيل ذلك يمكن القول بأن الاستعارة المفيدة تحقق أغراضا عديدة منها :

(١) في الاستعارة شرح المعني ، وفضل الإبانة عنه ، كما يبدو في قول الله تعالى :" واشتعل الرأس شيباً " حقيقته : كثر الشيب في الرأس وظهر ، واستعارة الاشتعال أبلغ لفضل ضياء النار على بياض الشيب ، ولإفادة القوة في ظهور الشيب ، ففي الاستعارة إخراج الظاهر في صورة شيء أشد منه ظهوراً ، وأسرع منه انتشارا ، زيادة في الإيضاح ، وإشعاراً بأن الشيب لا يتلافي انتشاره كما لا يتلافي اشتعال النار.

وكذلك قوله تعالى :" بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " حقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، والقذف أبلغ من الإيراد ، لأن فيه بيان شدة الوقع ، وفي شدة الوقع بيان القهر ، وفي القهر هنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجة ، لا على جهة الشك والارتياب وكذلك الدمغ أشد من الإذهاب ، لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة الأثر ما ليس في الإذهاب .

(٢) وتفيد الاستعارة تأكيد المعني والمبالغة فيه ، وهي في هذا – كما سبقت الإشارة – أبلغ من التشبيه ، لأن في الاستعارة كمال الادعاء بأن المشبه هو نفس المشبه به ، أو هو فرد من أفراده .

وتأمل قول الشاعر :

وقد أغتدى والطير في وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فالحقيقة :" مانع الأوابد من الذهاب والإفلات " ، ولكنه استعار للمنع (القيد) وهذا أبلغ ، لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف ، لأن ما في القيد من المنع أمرا مشاهدا لا يشك فيه .

وكذلك تأمل قول الله تعالى :

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } ، حقيقة المعني علا الماء وطما ، والاستعارة أبلغ ، لأن فيها دلالة القهر ، وذلك أن الطغيان علو فيه غلبة وقهر .

وكذلك قول الله تعالى :" بريح صرصر عاتيـة " حقيقتـه شـديدة والاستعارة أبلغ ، لأن العتو شدة فيها تمرد .

(٣) وفـي الاستعارة الإيجاز ، والإشـارة إلـى المعنـي الكثير بالقليل مـن اللفظ ، وهي فـي هذا أبلـغ من التشبيه وأجمـل مـن الحقيقـة ، كقـول ابـن المعتز :

أثمــرت أغضــان راحتـــه * بجنـــان الحســـن عنابــــا

فلو حملنا أنفسنا على إظهار التشبيه لاحتجنا إلى أن نقول :

أثمرت أصـابع يده ، التـي هـي كالأغصـان لطـالبي الحسـن شـبيه العناب من أطرافه المخضوبة . ولا يخفي الإيجاز فـي البيت ، وتحقيق المراد من التجميل مع هذا الإيجاز ، ومثله بيته المشهور :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العنـاب بـالبرد

فليس أوجـز مـن هـذه الاسـتعارات ، لـولا هـذا التـراكم والتـزاحم الـذي يشعر بالتصنيع ومجافاة الطبع ، ولـو أن هذه الاستعارات التـي حشدها في هذا البيت الواحد توزعتها قصيدة كاملة لأجزأت .

(٤) وفي الاستعارة تحسين المعني وإبرازه في حلة جميلة تعجب النفس : وقد يكون في ذلك مالا تدركه الحقيقة ، ويمكن أن يحققه التشبيه لولا فضل الإيجاز الذي يبدو في الاستعارة كما سبق بيانه .

(٥) ومن مزايا الاستعارة تجديد البيان ، فهي – كما يقول عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة : " تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له فضلا بعد فضل " وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتي تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة مموقة " [1] .

فاللفظة المستعارة ترد وقد استعيرت في عدة مواضع ، ثم يكون لها في بعض ذلك ما ليس للباقي من الحسن والجودة ، مثال ذلك لفظ (الجسر) في قول أبي تمام :

لا يطمع المرء أن يجتاب لجّته * بالقول ما لم يكن جسرا له العمل

وقوله :

بصرت بالراحة العظمي فلم أرها * تنال إلا على جسر من التعب

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٢ .

فلها في الثاني من الحسن ما ليس للأول ، ثم انظر إليها في قول ربيعة الرقي :

قولي : نعم ، ونعم إن قلت واجبة

قالت عسى ، وعسى جسر إلى نعم

(٦) ومنها الخيال الجميلَ كما يوضح ذلك عبد القاهر بقولهِ : " فإنك ترى الجماد بها حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والمعاني الخفية بادية جليلة ، وترى المعاني اللطفية التي هي من خبايا العقل كأنها جسمت حتي رأتها العيون ، والأوصاف الجثمانية عادت روحانية لا تدرك إلا بالأفكار والظنون"، وفي هذا ابتكار يحدث في نفوس السامعين أجمل الأثر .

(٧) وإذا كان التشبيه يعد صائبا فيما ظهر وجهه وفيما خفي وبعد ، وكلما احتاج إدراك الوجه إلى إمعان فكر وتدقيق نظر كان أغرب وأجود ، فإن الاستعارة بعكس ذلك ، ينبغي أن يكون الوجه فيها جليا لئلا تصيرا لغزا من الألغاز ، وكل استعارة ينبغي أن تصلح للتشبيه ولكن ليس كل تشبيه صالحاً لأن يكون استعارة ، ففي قول النبي -صلي الله عليه وسلم - :" الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " ليس لك أن تحوله إلى استعارة فتقول :" رأيت إبلا مائة ليس فيها راحلة " لخفاء الوجه (١) .

---

(١) الراحلة البعير الذي يرتحله الرجل جملا كان أو ناقة ، يريد أن المنتخب من الناس في عزة وجوده كالنجيبة المنتخبة، التي توجد في الإبل ، فشبه حال الناس من حيث عزة وجود

والآن تأمل هذه الأمثلة من الاستعارات الدقيقة الدالة ، كيف تؤدي وظائفها المعنوية والأسلوبية ، وكيف تؤثر في النفس بما تتضمنه من سمو فكري وأداء بلاغي :

قول الله تعالى : {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ }.

فالغضب هنا يحس وكأنه إنسان يدفع موسي ، ويحثه على الانفعال والثورة ، ثم سكت وكف عن دفع موسي وتحريضه .

وقوله جل شأنه : {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ }.

فإن كلمة " يموج " تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادا لا تدرك العين مداه بحيث صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ولا تأتي كلمة يموج إلا موحية بهذا المعني ودالة عليه .

وقوله تعالى :" والصبح إذا أسفر " .

فالمعني هنا انكشاف الصبح بعد استتاره . ووضوحه بعد التباسة تشبيها له بالرجل المسفر الذي قد حط لثامه ، فظهرت مجالي وجهه ومعالم صورته .

الكامل مع كثرتهم بحال الإبل لا يجد فيها الإنسان ما يرتحله ، فهو تشبيه تمثيل ، لأن الوجه متعدد. مركب

وقوله سبحانه وتعالى : {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ}.[1]

يقول الشريف الرضي مبينا وجه الجمال في هذه الآية : وفي هذا الكلام استعارتان : إحداهما " سمعوا لها شهيقا وهي تفور " والشهيق الصوت الخارج من الجوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد ، والكمد الطويل ، وهو صوت مكروه السماع ، فكأنه سبحانه وصف النار بأن لها أصواتا مقطعة تهول من سمعها ويصعق من قرب منها .

والاستعارة الأخرى في قوله سبحانه " تكاد تميز من الغيظ " من قولهم : تغيظت القدر إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان المغضب ، فكأنه سبحانه وصف النار – نعوذ بالله منها – بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحد أن يبالغ في الانتقام ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام ، وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا يكاد فلان يتميز غيظا ، أي تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل وأخلاطه المتجاورة تتنافي وتتباعد من شده اهتياج غيظه ، واحتدام طبعه ، فأجرى سبحانه هذه الصفة

---

(١) سورة الملك : ٧ ، ٨ .

التي هي أبلغ صفات الغضبان على نار جهنم لما وصفها بالغيظ ليكون التمثيل في أقصى منازله ، وأعلى مراتبه .

هذا ، وبعد أن عرفت أن بلاغة الاستعارة ترجع إلى تناسي التشبيه ودعوى الاتحاد ، إلى جانب ما تفيده من تجسيم الأمور المعنوية ، وما تضفيه من روعة الخيال ، وما تحدثه من أثر في النفوس ، وأنها تتجمل بالإيجاز ، فاعلم أن الاستعارة تتدرج في الأبلغية وأبلغ أنواعها الاستعارة التمثيلية لمجيئها في الهيئات المنتزعة من أمور متعددة ، ولما تحتاج إليه من كثرة الاعتبارات ، ويليها الاستعارة المكنية لأن قرينتها إثبات لازم المشبه به للمشبه .

وتأتي بعد ذلك الاستعارة التصريحية ، وهي تتفاوت أيضا فأبلغها الاستعارة المرشحة ، فالمُطْلَقة ، فالمجردة .

المناقشة

(١) بين اللفظ المستعار ، ومعناه الحقيقي ، ومعناه المراد ، ووضح نوع الاستعارة فيما يأتي :

أ- قول النبي صلي الله عليه وسلم في وصيته لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن :" وصل الظهر بعد ما يتنفس الظل وتبرد الرياح ".

ب- قول الله تعالى : {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمتَ عَلَيهِمْ } .

جـ - قول الله تعالى : {يَا أيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} .

٢- وضح نوع الاستعارة في كل مما يأتي موضحا وجه الحسن فيها :

أ- قول الشاعر في وصف الكتب :

لنا جلساء لا نمل حديثهم * ألباء مأمونون في كل مشهد

ب- قول النبي صلي الله عليه وسلم :

" خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة [1] طار إليها "

جـ - قول الله تعالى : {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ }

٣- بين ما في النصوص الآتية من أنواع الاستعارة ؛ مع بيان المستعار منه والمستعار له :

أ- عند الصباح يحمد القوم السري .

ب- وإذا العناية لا حظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان

جـ - لا تعجبي يا سلم من رجل * ضحك المشيب برأسه فبكا

---

(١) الهيعة: الصيحة يفزع منها ، والمراد : صيحة الحرب .

الفصل الخامس

دراسات تطبيقية علي ما سبقت دراسته في المجالات التالية :

أولا : الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في بيان شأن الصلاة

ثانيا : دراسة عامة للأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف

دراسات تطبيقية على ما سبقت دراسة في المجالات التالية :

أولا : الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في بيان شأن الصلاة :

(١) دور الاستعارة في بيان شأن الصلاة بإبراز ذلك حسيا في جانب الأجر :

ورد بيان شأن الصلاة وما يتعلق بها من أعمال العبادة في القرآن الكريم في إطار جامع تلتقي أطرافه في بيان استعاري موضح ما يترتب عليها من العاقبة .

قال الله تعالي : {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ*لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[(١)]} .

لقد أخرج التعبير الاستعاري هنا في قوله تعالي : (يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) معني رجاء الثواب بعمل تلك الطاعات التي تتصدرها الصلاة إخراجا حسيا لجانب معنوي كامن في نفوس الموصوفين هنا .

أما تعداد أعمالهم المذكورة بعد إن في إطار العطف ، ثم جمعها بالفعل يرجون، فيشير إلى مرافقة حال الرجاء تلك ، لجميع الأعمال المذكورة قبلها ، مما يشير بدوره إلى كونها متجهة إلى الله تعالي في صدق وسداد .

---

(١) سورة فاطر : الأيات ٢٩ ، ٣٠

وتخير لفظ " التجارة " دون غيرها لبيان ذلك له بلاغته من عدة وجوه :

منها : أن التجارة متعلقة بالربح الذي هو أكبر شاغل للنفوس ، ولذا اتضح شأن صلاة الجمعة في إطار الأمر بالاتجاه إليها " إذا نودي " لها وترك البيع " كما سيرد بيانه(١) .

ومنها : تعلق التجارة بالحذر الدائم في نفوس أصحابها وخشية كسادها، فإذا شغل الموصوفون هنا بالعبادة صلاة وإنفاقا راجين ثواب الله مستشعرين كونه أعظم منها ، فكأنهم في تجارة أخري ، رابحة لا تعرف الكساد .

ومنها : أن تسميه الصلاة وما يرتبط بها من وجوه العبادة بالتجارة يدل علي ما يكمن في نفوس أصحابها من رغبة حقيقية فيها ، وشدة تعلق بها ، وحرص عليها وخوف من عدم قبولها ،وصونها والمداومة علي الانشغال بها حتى جاز أن تسمي تجارة ، فهذه هي صفات التجارة المعروفة ، التي اتخذت علما علي تجارة خرجت بتشبيهها بها وحلولها محلها في استعارة دالة ، من الإبهام إلي الجلاء الواضح ، مما أشير إليه في مجالات أخري بالاشتراء للأنفس والأموال مسندا إلي الله تعالي ، مقابل الجنة .

---

(١) انظر : من بلاغة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : فتحية محمود فرج : ٥٦ وما بعدها

ومنها : أن التفصيل في هذه الأعمال المتتابعة التي اشتملت علي تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق سرا وعلانية ، ثم الجمع في إطار التجارة التي لن تبور ، فيه ترغيب وحث بعيدا المدى ، وإشارة إلي الثواب في الآخرة ، وتعلق بالمغفرة المترتبة عليه في الدنيا ، لما ذيل به من قوله تعالي : " إِنَّهُ غَفُورٌ " وثناء دائم كما أشعر به قوله تعالي : " شَكُور" .

هذا فضلا عما يدل عليه الفعل " يتلون " من الاستمرار أي " يداومون علي تلاوته وهي شأنهم وديدنهم ... " يأخذون ما فيه ... يعلمون ويعملون به " [1] ، وما يدل عليه قوله تعالي : " سرا وعلانية" بهذا الطباق من دوام الإنفاق " كيفما اتفق من غير قصد إليهما "[2]، وما تدل عليه لفظة تجارة – فضلا عما سبق – علي أنها " معاملة مع الله " [3] وما يدل عليه قوله تعالي : " لن تبور " ويؤكده لكونه ترشيحا للاستعارة ، هذا إلي جانب تلك الدلالة التي يتضمنها الفعل " يرجون " من كونهم " لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم"[4]

---

(١) الكشاف : للزمخشري : ٣ : ٣٠٨ .
(٢) روح المعاني الالوسي : ٢٢ : ٣٦٥ .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه .

وهكذا اتجهت الاستعارة في الأسلوب القرآني العظيم لبيان شأن أجر الصلاة وما تعلق به من أحوال الرجاء والخوف لدي المصلين في هذا الإطار الحسي الجامع .

(٢) ارتباط التعبير الاستعاري في القرآن الكريم بالقوة النفسية وتجسيدها :

التعبير الاستعاري في لفظ " يدرءون " ودلالته على القوة النفسية المتعلقة بإقامة الصلاة :

وورد التعبير عن مظاهر القوة النفسية المستمدة مما يدعمها ويثبتها في النفس من إقامة الصلاة، بأسلوب يتضح فيه التلازم بين إقامة الصلاة ومظاهر هذه القوة النفسية وما تدل عليه هذه المظاهر من جوانب عملية متعددة وتنطلق منه من صدق المقصد ابتغاء وجه ربهم" ، وذلك في قوله الله تعالي : {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(١)} .

فالصبر المذكور " ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ " قوة نفسية لها مظهران عمليان معطوفان عليها : " وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً " وجميع ذلك في تعبير دال – بصيغة الماضي – علي تحقق

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٢ . .

ذلك في نفوس أصحابه وخلقهم ، أما ما يضمن استمراره فيما يجد من الظروف التي يكرهونها مما يتطلب دفعا له ومقاومة فقد عطف علي ذلك بصيغة المضارع في (وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) ، وهذا "الدرء" الظاهر في صورة حسية استعارية لمعني الدفع يتطلب قدرة متميزة عليه ، فهي ليست مجرد صبر علي الإساءة ، بل دفع لها بالحسنة .

فالمادة اللغوية للفعل " يدرءون " تدور حول معاني الدفع لما يكره ويصعب من الأمور ؛ فمنه " تدارأتم أي اختلفتم وتدافعتم ... ودرأته مداراة وداريته إذا اتقيته ولاينته ، فمعناه الاتقاء لشره ... ودرأته عني أدرؤه درءا : دفعته ... وفي الحديث : " اللهم إني أدرأ بك في نحورهم " أي أدفع بك لتكفيني أمرهم ... قال ابن الأثير : ذو تُدْرَإ أي ذو هجوم لا يتوقى ولا يهاب ؛ ففيه قوة علي دفع أعدائه " [1] ، كما أنها تتصل بعنصر المفاجأة وقوة الداعي إليها مما تكرهه النفس " يقال درأ علينا درءا إذا خرج مفاجأة ، ... وإذا طلع من حيث لا ندري، واندرأ علينا بشر ... ودرأ الوادي بالسيل دفع .... (و) يقال للسيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه : سيل درء أي يدفع هذا وذاك وهذا .... ودرأ فلان علينا أي هجم ... " [2] .

---

(١) لسان العرب : ابن منظور : مادة (درأ) .
(٢) السابق : مادة (درا)

والآية توضح معني المغالبة وشدة دفع السيئة ، لا بما يقتضيها من دواعيها ولكن بما يضادها ، فالدفع لها بالحسنة ليس أمرا مألوفا ناشئا عنها بل مضادا لمقتضادها ، ولمقتضي الحال الذي تولد عنها في النفس ، فهم : " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم ، وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا ، وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا[1] "

(١) الكشاف : للزمخشري : ٢ : ٣٥٧ ، ٣٥٨

ثانيا : دراسة عامة للأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف :

١) أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف وخصائصها :

تتنوع أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف تنوعا واسع المجال ، مرتبطة في ذلك بما تدل عليه من المعاني وترتبط به من المواقف ، فيرد الأسلوب مشتملا في كل حال علي ما يناسب طبيعته ويؤدي غرضه من هذه الأنماط البيانية المتعددة التي تكتسب بخصائصها المميزة أوضاعا لها مكانتها البارزة في البيان العربي بوجه عام .

لذلك لم يكن فضل الدراسات التي تعمد إلي بيان هذه الأنماط وتحليلها في بلاغة النبي صلي الله عليه وسلم براجع إلي مجرد تصنيفها إلي الأقسام المعروفة في البيان العربي من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها، أو بيان أقسام كل نوع من هذه الأبواب وما يشتمل عليه من عناصر فقط ، وإنما يكون فضل الدراسة في هذا المجال حين تستطيع أو تحاول التوصل إلى بيان قيمة هذه الأساليب ، والعناصر التي أسهمت في بيان هذه القيمة والخصائص التي منحتها تميزها وشأنها فوردت علي شاكلة مخصوصة مدعمة بأسباب القوة والتأثير .

والذي يعمد إلي دراسة الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف يجد نفسه أمام كم واسع المجال ، متعدد الأضرب ، متميز الخصائص، مشتمل علي الكثير من الجوانب التي تميز هذه الأنماط وتبرز خصائصها . فسواء أكان التعبير متصلا بأسلوب التشبيه أم الاستعارة أم الكناية أم غيرها مما سيرد القول فيه فإن المتأمل لهذه الأنماط يجد صورا بيانية متنوعة المجالات ، تقرب الحقائق ، وتوضح القضايا، وتبرز الكامن من المعاني وتتجاوز الواقع إلي ما وراءه من الأمور المتصلة بالغيب إيضاحا لما يرتبط بمضامينها من القضايا ويتعلق بها من المواقف الهامة .

وكشفا للحقائق وتقريبا للغوامض البعيدة يجد المتأمل في هذه الأساليب عناية بالغة بدقائق كل نمط وأطرافه وعناصره و قيمته وسببه .

ويرتبط تنوع هذه الأنماط كما يرتبط تنوع خصائصها بتنوع مجالاتها وغاياتها .

فمنها النمط الذي يشتمل عليه الأسلوب المفصل القائم على الإطناب والاعتناء بالجزئيات والعناصر المبرزة دلالته .

وممـا يـرد فيـه هـذا الـنمط مـن المجـالات ، مجـال بيـان الأمـور المتعلقة بالغيب أو المستقبل .

ومن أمثلته ما روي عن حذيفة [1] قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ، قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة . ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول ﷺ يقول: " تعرض الفتن علي القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، أي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتي تصير علي قلبين، علي أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر اسود مربادا كالكوز مُخَجِّيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما اشرب من هواه . قال حذيفة : وحدثته أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر . قال عمر : أكسرا لا أبا لك ؟ فلو أنه فتح لعله كان يعاد ، قلت لا بل كسرا ، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثا ليس بالأغاليط ، قال أبو خالد : قلت : يا أبا مالك : ما أسود مربادا ؟ قال : شدة البياض في سواد . قال : قلت : فما الكوز مخجيا ؟ قال: منكوسا " .

-(١) صحيح مسلم : ١ / ٣٥٣

ففي هذا النمط من التعبير البياني تتتالي الصور والتفاصيل المتعلقة بها إيضاحا للمعاني الكامنة وبيانا لما تشير إليه من دلالات ، لذا أتبعت كل جزئية من جزئياتها بما يوضحها وتليت كل صورة بما يلائمها مما بني عليها ومهد لغيرها حتى اكتملت جميع الصور فاتضحت القضية التي يدور حولها الأسلوب بهذا التعبير المفصل الذي تكاملت أجزاؤه حتى كونت كلا واحدا لا فصل بين مكوناته .

فإيضاحا لكيفية عرض الفتن علي القلوب شبهت بالحصير ، وبيانا لدقائق المعني الذي تتضمنه هذه الصورة اتبعت بهذا التفصيل الواضح في ((عودا عودا)) ليصير ذلك كله ممهدا للنتيجة التي بني ذكرها عليه ، فوردت مفصلة كذلك ، متضمنة جانبين متقابلين يوضح كل منها الأخر ، لتكتمل دلالة ذلك لدي غاية واضحة في نقطة واحدة عند لفظة " حتى " التي دخلت علي الفعل المضارع " تصير " الذي يفيد التحويل . ثم تبدأ الصور البيانية في الظهور من جديد مبنية علي ذلك المعني الذي تم إيضاحه تأكيدا له ، وبيانا لجانبيه المتناقضين بصورتين تشبيهيتين متقابلتين كذلك ، أما إحداهما فتوضح ذلك النوع الذي أنكر الفتن فصار " أبيض مثل الصفا " أما الأخرى فتوضح نقضيه الذي صار " أسود مربادا كالكوز مخجيا " ولما كان هذا الصنف الثاني منطويا علي الكثير من الأمور أتبع وصفه بما يوضح جوانب هذا الوصف ودقائقه ، فأتبع لفظ " أسود " الدال علي اللون

بلفظ ((مربادا)) الدال علي درجة ذلك اللون ، وأتبع المشبه بـه كذلك بما يوضح صفته فـي اللفظ " مخجيا " الدال علي حالـه ووضـعه ، ثم تمت دلالة ذلك بما تبعها من ألفاظ دلت عليها في" لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه".

ولقد عبر ذلك كله عن طبيعة الفتن ونتائجها وآثارها في القلوب، ليشكل هذا الجزء من الأسلوب البياني الدال قسما واضحا من أقسام هذا الحديث الشريف ، يكون بمثابة التمهيد لما تلاه من قسم آخر أشتمل علي تصوير ذلك الباب المغلق الذي أوشك أن يكسر ، ثم إتباع ذلك بما وضحه من الحقائق المفصلة في كون ذلك رجلا يقتل أو يموت ليصير ذلك بمثابة القضايا الواضحة التي تقترب دلالاتها بهذا الأسلوب من المجال الإدراكي .

ولقد كان للكثير من الدقائق اللغوية هنا فضل بيان الغامض من المعاني ، والبعيد من الدلالات مثل العناية بوصف : " الباب " بأنه " مغلق " وورود الفعل " يوشك " الذي يدل علي قرب وقوع الحدث ، والتعبير بالفعل " يكسر " دون غيره ، وربط ذلك بشخصية عمر- رضي الله عنه – الذي يمثل نقطة تحول كبري في هذا المجال .

وإذا كان هذا الأسلوب البياني المفصل مرتبطا في خصائصه – كما سلف الذكر – بما يتعلق به من مجالات التعبير من جهة ثانية ، فإنه يتخذ بدوره أنماطا متعددة ، تتصل بذلك النمط الأسلوبي العام في التفصيل والإيضاح ، وإتباع الصورة بما يبرز دلالتها لغيرها مما يبني عليها ، أو الجمع بينها وبين غيرها من القضايا المتعلقة بها في سياق دال واضح ، لكنه يتنوع بتنوع طبيعة القضية التي يتضمنها أو يعبر عنها ، وبتنوع صلتها بالمخاطبين أو السامعين .

فمما يرتبط ببيان الأمور المتعلقة بالغيب أو المستقبل أيضا ، لكنه يختلف عما سبق من حيث الارتباط بالمخاطبين أو السامعين ، نمط من الأساليب البيانية المتضمنة صورا مركبة تركيبا لغويا مجتمع العناصر حول دلالة واحدة ، وإن كان مشتملا على أكثر من قضية تضمها تلك الدلالة وتوضحها عناصر التعبير البياني المتعددة .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [1]

قال رسول الله ﷺ :

" صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا " .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٧١٠

فهذا الأسلوب مشتمل علي قضيتين مرتبطتين في إطار واحد بهذا الحكم الذي أخذ محل الصدارة من الأسلوب ، وهو كونهما " من أهل النار " .

وورود هذا الحكم بعد لفظة " صنفان " التي تتضمن التعبير العددي من جهة ، والاختلاف في طبيعة كل منهما من جهة أخري ، لهو من ابرز العناصر الممهدة لما يرد بعدها من التفاصيل الموضحة لجوانبها الدلالية والتأثيرية .

ولقد وردت الصورتان البيانيتان التاليتان المرتبطتان بالمضمون الغيبي الذي اتضح تعلقه بالمستقبل في قول النبي - صلي الله عليه وسلم - : " لم أرهما " متضمنتين من العناصر ما يلائم طبيعة كل منهما تفصيلا وإيضاحا ، فالأولي " قوم معهم سياط كأذناب البقر " تجاور فيها المشبه والمشبه به تجاورا يوحي بالملازمة ويدل باسمية الجملة المشتملة عليه علي الثبوت والدوام ، كما يحمل دلالة ظاهرة دقيقة علي هيئة المشبه وأثره ؛ فأما هيئته فقد اتضحت من حيث الطول والقوة في تشبيهه بأذناب البقر ، وأما الأثر فقد اتضح فيما فصل به مما تبعه في : " يضربون بها الناس" وباجتماع ذلك تحققت دلالة هذه الصورة حيث ارتبط فيها الفعل بأثره والسبب بنتيجته التي ارتبطت بمصائر هؤلاء القوم فهم "من أهل النار " .

أما الثانية فقد عطفت علي الأولي بالواو ، ثم صدرت منها بالموصوف النكرة ، ثم أتبعت بوصف مفصل للهيئة والفعل وأثر ذلك الفعل ، ونتيجته. واقترن فيها كل وصف بما يلازمه ، وكل غريب من المعاني بما يوضحه ؛ فكاسيات لازمتها وجاورتها لفظة عاريات مما يدل علي تلازم الصفات المذكورة وما تدل عليه من الدلالات في ذات الموصوف ، ومميلات لازمتها كذلك وجاورتها مائلات مما يدل علي اجتماع التأثير والتأثر في هاتين الصيغتين (اسم المفعول ثم اسم الفاعل) ، وصفة الرءوس تبعتها صورة تشبيهيه توضح هيئتها التي لم تكن معروفه بعد ، مشتملة في عناصرها علي المألوف الذي يمكن استحضاره في الأذهان والأخيلة بمجرد ذكره٧ وهو" أسنمة البخت " وأتبع ذلك تفصيلا وإيضاحا بما يوضح هيئته بدقة في : " المائلة " ثم تلا هذا كله ذلك الحكم المتقدم في صدر الحديث الشريف تأكيدا وإيضاحا " لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها " ، ثم ختم جميع ذلك بإبراز عنصر من ذلك الحكم المتقدم له خصوصية في التعبير وهو "ريحها " إبرازا له دلالته علي مقدار ذلك البعد بين من يوصف بذلك الوصف وريح الجنة في كناية دقيقة دالة " وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا " .

و ممـا يـرد فيـه هـذا الـنمط البيـاني المفصـل كـذلك مـا يـرتبط بالمجـالات الواقعيـة المتعلقـة بأعمـال النـاس وطبـائعهم ومـا يكمـن وراء تلك الأعمال والطبائع من استعدادات نفسية ودوافع .

فـإبرازا لمـا يكمـن وراء هـذه الأعمـال المتنوعـة مـن صـفات نفسـية خفية ودوافع دفينـة غامضـة ، نجـد الصـور البيانيـة فـي الحديث النبـوي الشريف مخرجـة الغمـوض إلـي مجـال الوضـوح ، والمعنـي البعيد إلـي مجـال الحس القريـب ، والحالـة النفسية ذات الـدرجات ، المتعـددة مـن التفاوت إلي صور مرئية متنوعة الدرجات كذلك في القوة والضـعف أو الصعوبة والسهولة ، أو الضيق والسعة .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضـي الله عنـه أنـه سمع رسـول الله ﷺ يقـول[1] " مثـل البخيـل والمنفـق (وفـي روايـة: والمتصـدق) كمثـل رجلين عليهمـا جبتـان [وفـي روايـة (جنتـان) مـن حديد ، قد اضطرت أيديهما] من ثديهما إلي تراقيهما ، فأمـا المنفق فـلا ينفق إلا سبغت أو وفرت علي جلده ، حتـى تخفـي بنانـه ، وتعفو أثـره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا لزقت كل حلقه مكانها (وانضمت يداه إلي تراقيه) فهو (يجتهد أن) يوسعها ولا تتسع (قال أبو هريرة : فانـا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا في جيبه ، فلو رأيته يوسـعها ، ولا تتوسع).

---

(١) مختصر البخاري ١ / ٣٣٩، ٣٤٠ ، صحيح مسلم : ٣ / ٥٨

فهذا الأسلوب المتضمن صورا بيانية حسية معبرة عن تلك الأفعال المتعلقة بأحوال النفس المتضادة بين شخص وأخر ، يبرز جوانب خفية غامضة مرتبطة بآثارها الملازمة لها مما يتطلب قدرة علي إخراج تلك المعاني الغامضة والجوانب الخفية إلي مجال الإدراك الحسي لتؤثر في الشعور وتقدم للفكر قضية عقلية واضحة يمكنه تأملها والمقارنة بينها وبين ما يخالفها .

ووضع عناصر هذا التصوير علي نحو مفصل موضح هيئة الموصوف في كلا الحالين ، قد أتاح فرصة تأملهما والتعرف علي الكثير من غوامض المعني المتعلقة بهما .

فمن ناحية يري المتأمل صورة الرجلين مجتمعه في إطار واحد ، فكلاهما مرتد جبة من حديد ، أما هيئة كل منهما فقد اتضحت تفصيلا في " قد اضطرت أيديهما من ثديهما إلي تراقيهما " ، فكلاهما مقيد بذلك القيد المتعلق معنويا بدلالة شعورية علي الرغبة في المال وحبه والحرص عليه ، وأما الآخر فلم يستطع فاتضح أيضا تأثير ذلك فيه .

فبينما " سبغت " الجبة الحديدية و " وفرت علي " جلد الأول حتى صارت من السعة والطول بحيث " تخفي بنابه وتعفو أثره " ، لزقت الأخرى كل حلقة مكانها (وانضمت يداه إلي تراقيه) " فهو يجتهد أن يوسعها ولا تتسع " وهذا التفصيل الأخير الذي يصور اجتهاده في

محاولة توسيعها دون أن تتسع بيان أخر لحال تغلب دوافع هذه النفس علي صاحبها وهو معني غامض يظهره هذا التصوير الحسي ويبين درجة تمكنه من صاحبه وعمق أثره فيه .

ومما يتضح فيه أيضا هذا النمط القائم علي تفصيل جزئيات الصورة وإيضاح جوانبها وآثارها مجال بيان القضايا الدينية التي تمثل مجموعة الأسس الكلية والقواعد الثابتة التي يحتاج ترسيخها إلي الإطناب والتفصيل .

ومن ذلك قضية الإيمان والتصديق ، والعصيان والتكذيب وما يترتب علي كلتيهما من النجاة أو الهلاك .

وهنا ترد الكثير من أساليب التعبير في الحديث النبوي الشريف ورودا مفصلا علي نحو تمثيلي دقيق للمعاني يرتبط في جملته بشدة الحرص والإخلاص في التحذير وقوة التأكيد في إطار يتسم ببيان المعاني بيانا حسيا فيه الحركة والصوت والانفعال وربط المقدمة بنتيجتها والتكرار وغيرها .

ومن أمثلته ما روي عن أبي موسي عن النبي ﷺ قال [1] : "إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتي قومه فقال : يا قوم : إني

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ١٤٦

رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا ، فانطلقوا علي مهلتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهكلهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق " .

فقد اجتمعت جوانب الصورة أولا في صدر الحديث علي هذا النحو المؤكد في " إن مثلي ومثل ما بعثني الله به " ، ثم أتبع ذلك بتفصيل كل جزئية من جزئيات الصورة وجوانبها ، فمن جهة ترد صورة ذلك الرجل " الذي يمثل عنصرا من عناصر المشبه به المركب " وصفته حيث " أتي قومه " ، وكلامه : حيث قال : " ياقوم " مناديا ، ودرجة حذره وحرصه ، حيث يصف ما رأي في صدق وتأكيد " إني رأيت الجيش " ، ويزداد تأكيده رجاء تصديقه فيقول : "بعيني " ، ثم يضيف تأكيدا ثالثا ورابعا فيقول : " وإني أنا النذير العريان " ، ثم يبرز عنصر التحذير والرغبة في النجاة قائلا : " فالنجاء " .

أما القوم الذين يمثلون عنصرا آخر من عناصر المشبه به المركب فقد اختلفوا بين طائع مصدق مستجيب ، وعاص مكذب غير مستجيب ، وقد شكل هذان الحالان جانبين من عناصر الصورة ثم بني

علي كليهما ما يلازمه من النتائج ليختتم ذلك كله بما صدر به من بيان مفصل ومؤكد للطرفين البارزين المتناقضين من عناصر الصورة .

وإذا كانت هذه المجالات المتنوعة تتطلب هذه التفاصيل الشاملة لجميع الجزئيات فإنها تمثل مجموعة من النماذج التي تتعدد مثيلاتها في غيرها من القضايا التي تتطلب مثل ذلك ، بحيث يمكن القول بأن التطابق والتلازم بين خصائص الأسلوب ونمطه يتفق في كل حال والمجال الذي يدور في إطاره ، أو القضية التي يعالجها تحقيقا لغرضه وبيانا لمغزاه .

وإيضاحا للمزيد من أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف ، نجد تنوع هذه الأنماط أيضا بحسب تنوع مجالاتها ومقاصدها فنجد الإيجاز اكتفاء بما يدل عليه المذكور من المعاني والدلالات الواضحة ، أو التي يمكن اتضاحها في ضوء فهم الأسلوب وتأمل جوانبه المذكورة .

وذلك كما هو الحال فيما روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ (1) :

---

(1) صحيح مسلم : ٥/ ٦٨٧ .

"حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات "، فقد جمعت هاتان الصورتان المجازيتان جميع أنواع الأعمال من خير وشر ، وجميع ما يترتب عليهما من ثواب وعقاب مما هو واضح لا غموض فيه .

واجتماع الإيجاز مع الوضوح من أبرز خصائص التصوير البياني هنا حيث قامت كل لفظة بإيضاح جانب دلالي هام ، فحفت في الصورتين دلت بذاتها علي المجاورة والملازمة ، وتقديم واقتران لفظة الجنة بالمكاره و لفظة النار بالشهوات اقتران له دلالته كذلك علي ذلك التلازم بين كلا الجانبين وارتباطهما ارتباط الفعل بأثره والسبب بنتيجة، وتجاور كلتا الصورتين المتضادتين بوجه عام إبراز لدلالة عامة من خلال إظهار حسن النقيض بإظهار سوء نقيضه .

وفضلا عن ذلك فإن من أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف نمط يجمع بين قوة الإيجاز الدال ، ودقة البيان المفصل في آن واحد ، وذلك يتواجد بكثرة في مجالات التعبير عن القضايا المتعلقة ببيان الفروق الدقيقة بين ما يبدو متماثلا من الأشياء المتشابهة في الظاهر ، مع اختلافه في حقيقته وصفته واختلاف ما يترتب عليه من الأمور عن غيره .

وهنا يجد المتأمل للأسلوب ضربا من الجمع بين تلك الأمور المتفاوتة في حقيقتها مع ما بينها من تماثل في الظاهر في إطار من

التنسيق اللغوي والبلاغي الدال ، مع مراعاة دقة تركيب العناصر في أنماط مترابطة من الصور البيانية التي يتعلق بعضها ببعض تعلق الحلقات المتصلة أو البنية المتكاملة في تدرج تلقائي وتقسيم متلائم وطبيعة ما يضمه من جزئيات .

ومن أمثلة هذا النمط ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [1]" من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .

فقد ضم هذا الأسلوب البياني مجموعة من الصور البيانية القائمة علي التشبيه ، وكل صورة من هذه الصور استقلت بذاتها في تركيز شديد ببيان دلالة خاصة بأحد جوانب المعني العام وقيمته وفضله وجزائه والفرق بينه وبين غيره مما اختلف عنه زيادة أو نقصا ، كما انطوت هذه الصور مجتمعة علي كثير من الحث علي الأفضل بإيضاح منزلته وما يترتب عليه من الجزاء ، وفضلا عن ذلك كله فهي تترك

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٩٩ : ٥٠١ .

أثرا شعوريا عاما يولد الرغبة في التنافس للأفضل بوضع هذه الدرجات في سلم تنازلي من الأسمى إلي الأدنى .

وبذلك تضمن هذا الأسلوبي جانبي التركيز القائم علي الإيجاز الخاص، مع التفصيل القائم علي إيضاح المتشابه في شكله ، المختلف في طبيعته ودرجته مما ترك أبعادا شعورية ودلالات عقلية لها آثارها وقيمتها .

ومن أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي فضلا عن ذلك نمط يرد تتميما للأسلوب التقريري المباشر . ليكون ورود ذلك الأسلوب بمثابة التتميم الدلالي الموضح لجانب من جوانب المعني السابق عليه مما يحتاج إلي ذلك الإيضاح لبيان فضله أو صفته أو إزالة ما قد ينطوي عليه من الغموض أو اللبس .

ومن أمثلته ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ[1] : " من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة لا إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ، وهو علي كل شيء قدير، غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر " .

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٢٤٢ .

فورود هذا التشبيه الذي اختتم به الحديث الشريف علي هذا النحو الموضح كثرة الخطايا وزيادتها عن الإحصاء حيث أنها " مثل زبد البحر " له فضله في بيان قيمة ما ورد ذكره قبله وبيان جزائه وأثره ، وإثبات ذلك كله في النفس والعقل إثبات ترسيخ للفكرة ، وحرص علي فضل ذلك العمل .

وكذلك يمكن القول بان أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف ترد متنوعة تنوعا يرتبط بتنوع مجالات التعبير وما يقتضيه كل منها من طرق المعالجة ووسائل التأثير والإيضاح .

(٢) من الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف :

أولا : وظائف الأسلوب البياني بين الوسيلة والغاية .

انطلاقا من فكرة التلازم التام بين جانبي الأسلوب والمضمون أو اللفظ والمعني أو التعبير والدلالة ، فإن الأساليب البيانية تصطبغ بالكثير من المظاهر التي تسترعي الانتباه ، وتستوجب الدراسة لبحث ما وراء هذه المظاهر من أسباب وما تسعي إليه من غايات .

وانطلاقا كذلك من فكرة تنوع أشكال التعبير وفقا لما يرتبط بها من المواقف ، وتعبر عنه من المجالات ، يجد الأسلوب خصائصه العديدة التي تتوقف علي قدرة منشئه ، وبراعته في اختيار التراكيب الدالة الهادفة التي تلائم ما يعبر غنه ، وتؤتي ثمارها حين ترد علي هيئة مخصومة تناسب ما يسعى إلي تحقيقه من الغايات .

وإذا كان اللفظ هو الوحدة التعبيرية التي تتخذ منها مادة الأسلوب ولبناته ؛ فإن دور المنشئ يتوقف علي كيفية تركيب الألفاظ وتقسيم أجزاء الأسلوب ، واختيار مواضع الجمل ، وتهيئة الذهن لفهم ما يلقي عليه منها ، وكذلك تهيئة النفس ببث ظلال الأسلوب وآثاره في المشاعر بحيث يجتمع من ذلك كله كل لا يتجزأ يحقق جميع غاياته في آن واحد .

ومن هنا يتخذ التركيب الأسلوبي خصائصه في هذا المجال ، ويستقل بميزاته وملامحه التي تمنحه طابعا خاصا في ذاته يستطيع من خلاله تحقيق ما لا يحققه غيره من الأساليب ، وطابعا عاما في مجمله يستطيع به متلقيه أن يتبين السمات الشخصية المميزة لمنشئه .

ومن هنا أيضا يمكن القول بان بحث الخصائص اللغوية والبلاغية للأسلوب في هذا المجال يوقف الدارس علي أسباب تفاضل الأساليب ، ومنطلقات تمايزها واختلافها ، ومنابع سماتها التي تصطبغ بها وتمنحها ما ترد عليه من أسباب التأثير وعوامل الإقناع وسبل المعالجة.

ومن أكثر الخصائص وضوحا للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف العناية بالعناصر اللغوية الموضحة دلالات الصور البيانية والكاشفة عن مغزى الأساليب وغاياتها .

وهذه العناصر متعددة المواضع متنوعة الدرجات ، ترد في الأساليب بقدر محدد لا يتجاوز غايات الأسلوب ، فترد موضحة ما خفي من الجوانب التي تحتاج إلي إيضاح أو تقريب ، أو مبرزة دلالة

من دلالات الصور ، أو منبهة الأذهان إلي جانب من جوانب المعني محققة غير ذلك من الغايات كما سيرد إيضاحه .

فإذا كان وجه الشبه في الصورة البيانية غامضا فإن الأسلوب يرد مشتملا علي تعليق يوضح ذلك الوجه ، وإذا كانت صفة الموصوف الذي تضمن التصوير إيضاحها بعيدة غامضة فإنها تقترن بغيرها من الصفات التي تشتمل عليها صور أخري موضحة الفروق بين هذه الصفات ودرجات التفاوت بينها .

ومما يوضح ذلك ما ورد عن أبي موسي الأشعري قال : قال رسولالله ﷺ :(١)" مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر " .

فهذا التعليق المفصل الذي تبع كل صورة تشبيهيه ورد موضحا وجه الشبه فيها إيضاحا من شانه أن يزيل ما قد يحيط به من الغموض أو البعد ، وهذا التتابع الذي تجاورت في إطاره الصور ابتداء من

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٥١

الأسمي وانتقالا إلي ما هو دونه في تدرج متعدد الأقسام قد أبرز دلالات كل صورة وأوضح مغزاها وقيمتها . ولقد أسهم في إيضاح ذلك كله هذا الاختيار الدقيق للألفاظ ووضع كل منها موضعه من الصورة الجزئية من جهة ، ومن الصورة الكلية من جهة أخري ، فورد كل من الألفاظ والتراكيب علي هذه الشاكلة المتميزة الدالة .

ومن الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في هذا المجال أيضا، قيام الألفاظ داخل إطار الصور البيانية بدور الإيضاح مع التأثير ودقة الوصف وبيان ما يتعلق بالموصوفات من جوانب المعني ، من خلال ما ترد عليه هذه الألفاظ من التعريف والتنكير والعطف والإفراد والجمع والتعليق والقصر والإثبات والنفي والتقسيم والشمول والتكرار وبيان الشأن وغير ذلك مما تحققه الألفاظ في مواضع من الصور التي تكونت منها .

ومما تجتمع فيه هذه الخصائص اللغوية وغيرها ما روي عن أبي موسي عن النبي ﷺ قال: (١) " مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منهما نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها اجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخري إنما هي

---

(١) صحيح البخاري : ١ / ١٧٥ ، وصحيح مسلم : ٥ / ١٤٤

قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به " .

فقد حقق كل عنصر لغوي داخل إطار هذا التمثيل دوره في الإيضاح والتأثير المحققين غاية الأسلوب بوجه عام .

فقد لاءم التعريف في لفظتي " الهدي والعلم " اللتين تشكلان عنصرين لفظيين من عناصر المشبه بيان طبيعتهما التي لا خفاء فيها وكونهما أمرين ظاهرين معروفين لا يكتنفهما غموض ، ثم ناسب ذلك أيضا اقترانهما بعنصر له التقاؤه الأسلوبي بهما وهو " الغيث " الذي حقق من خلال تعريفه وما تبعه من الوصف بالكثرة نفس الغاية وأكدها.

وقد لاءم ذلك ما ترتب عليه وارتبط به من أمور فورد لفظ الماء معرفة وكذلك ما ترتب عليها من الإنبات للكلأ والعشب ، وما وصف به هذان من كثرة معرفة كذلك في القسم الأول من الأقسام الأسلوب ، ثم ورد لفظ الماء في القسم الثاني معرفة أيضا ارتباطا بما يدل عليه من الظهور والنفع ، وورد لفظ المنتفع بالماء معرفة أيضا بما يدل عليه ذلك من العموم وشمول الفائدة دون تعيين أو تخصيص ، ثم ورد لفظ

الماء في القسم الثالث نكرة لما يرتبط به من مضمون التصوير الذي وضع في إطاره ودلالة التعبير الذي احتواه حيث الدلالة علي التلاشي والضياع وعدم الانتفاع ، وورد ما ترتب علي ذلك أيضا نكرة مرتبطة بنفي حيث الدلالة علي العدم أو التلاشي التام ، وتلازم الاثنين مبني علي انعدام الأثر نظرا لانعدام المؤثر ، ثم بني علي ذلك كله ما ارتبط به من ألفاظ موضحة دلالته ، فوردت الأفعال المضارعة المسبوقة بنفي " لم يرفع " " ولم يقبل " لتؤكد ، ذلك الترابط وتقوي درجة الإيضاح وعمق المعني وتأثيره .

كما أدي التنكير من جهة أخري وظائفه في إطار آخر ، محققا أغراض التصوير البياني من الشمول وعموم النفع في القسم الأول حيث وردت لفظه"أرضا" مفعولا به نكرة للفعل أصاب للدلالة علي عدم اختصاص ذلك النفع بقوم دون غيرهم ، موافقة لجوهر القضية وحقيقة الأمر فهو للناس كافة . ثم ورد التنكير في الألفاظ المرتبطة بتفاوت درجات تأثير ذلك الفعل " أصاب " دالا علي ما يرتبط بكل لفظ من صفة وشان ، فلفظ " نقية " دالة علي سمو الشأن وقوة الانتفاع وعمق الأثر وكثرة ما تثمره من وجوه الخير ، أما لفظ " أجادب " فقد دلت بتنكيرها وصيغتها في سياقها عي ضعة الشأن وعدم الانتفاع وانعدام التأثير في ذاتها وإن كان النفع والتأثير حاصلين لغيرها بسبب إمساكها الماء .

أما تنكير لفظة " قيعان " فقد ورد دالا علي عدم التأثر والتأثير معا ، أو عدم الانتفاع والنفع في آن واحد وبلوغ ذلك مبلغا عاما شاملا يبلغ معه قدرها أقصي درجات الضعف والهوان وانعدام الشأن .

وبتأمل غير ذلك من العناصر اللغوية المساهمة في بيان جوانب التصوير ودرجات التفاوت أو الترابط والتلازم بين جميع أجزائه ، نجد العطف بين " الهدي والعلم " و " والكلأ والعشب " والأفعال المثبتة " شربوا وسقوا وزرعوا " ، وكذلك الأفعال المنفية : " لا تمسك ماء " " ولا تنبت كلا " ، وتلك الأفعال الموضحة مغزى الأسلوب وغايته وترابط عناصره ترابط السبب بنتيجته في" فقه" "ونفعه " و " فعلم وعلم " وفي " لم يرفع " و " لم يقبل".

كما لا يخفي دور العطف في ربط جميع أقسام الأسلوب ربطا محكما اتسق من خلاله كل جزء والذي يليه في تلاؤم تام .

وباجتماع غير ذلك من الخصائص اللغوية إفرادا وجمعا وتعليقا وقصرا وإثباتا ونفيا وتكرارا وحسن تقسيم نجد التصوير محققا آثاره وغاياته كما هو واضح من خلال هذه البنية ذات الأجزاء المتنامة المجتمعة لدي نقطة دلالية واحدة .

ويتميز أسلوب الحديث النبوي الشريف في هذا المجال – فضلا عما سبق – بكثير من خصائص الدقة والسمو اللغوي الذي يمنح الصور البيانية القدرة علي بيان ما يتوهم أنه بين ظاهر مع كونه خفي الدلالة .

ونجد ذلك في تلك المواضع التي ترد في إطار الأسلوب البياني متخذة صورة التعليق أو التقديم أو الاعتراض أو غيره موضحة مغزى أو جانبا دقيقا خفي الدلالة من جوانب التصوير مع وروده علي شاكلة يظن معها أنه واضح مكتمل الدلالة لا يحتاج إلي إيضاح .

ومما يشتمل على ذلك من الأحاديث الشريفة ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (١) " يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار" . ثم يقول الله تعالي : " أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا – أو الحياة ، شك مالك – فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية " ؟ .

فإلي جانب ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من ألفاظ واضحة الدلالة ، ودقة تصوير هؤلاء الموصوفين الذين " اسودوا " ، وما كان من أمر إيمانهم الذي بلغ ذلك القدر الضئيل وهو " مثقال حبة من خردل " ، ثم

---

(١) صحيح البخاري : ١ /٧٢ .

ما آل إليه أمرهم من إلقاء في ذلك النهر الذي أدي بهم إلي الخروج في تلك الهيئة الواضحة التي اشتمل عليها هذا التصوير البياني الدقيق ، فهم " ينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل " ، إلي جانب ذلك كله نجد هذا التعليق " ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية " متمما دلالة الصورة وموضحا ما دق من وجوه الشبه بين حالهم وهيئتهم وحال تلك النبتة ، وأنها مما نبه الذهن إلي تلك الحال واستحضار صورة هؤلاء الموصوفين واكتمال ما يتعلق بهم من دلالات .

وهذا الضرب من الإطناب ذي الأنماط البلاغية المتعددة " كالإيغال أو التتميم أو الاعتراض أو غير ذلك " يرد في أكثر من موضع من أساليب الأحاديث النبوية الشريفة محققا غايات التصوير ومظهرا دلالاته .

ومما اشتمل عليه إلي جانب ما سلف ذكره ما يرد مجليا هيئة الموصوف إجلاء تاما وواضعا ملامح حسية دقيقة لتلك الهيئة ، كما هو الحال فيما روي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ:(١)"يحشر الناس يوم القيامة علي أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها علم لأحد " (٢) .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٦٥٩

(٢) النقي : بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الحوري ، وهو الدرمك ، وهو الأرض الجيدة ، قال القاضي : كأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلي الحمرة . وقوله صلي الله عليه وسلم (ليس فيها علم الأحد) بفتح العين واللام أي ليس بها علامة سكن أو بناء أو اثر.

فإلي جانب إتباع لفظ الأرض بهذا الوصف الذي يوضح لونها الأبيض الذي يضرب إلي الحمرة مما يفهم من لفظتي " بيضاء عفراء " ثم تشبيهها في ذلك بقرصة النقي ، إلى جانب ذلك وردت جملة " ليس فيها علم لأحد " موضحة تلك الهيئة ومجلية مظهرها الحسي أمام العين.

وقد يشتمل الأسلوب البياني علي ما يظهر حالا خاصة من أحوال الموصوف فترد دلالة التصوير متجهة إليه وموضحة شأنه وقيمته .

ومن ذلك ما يتضح في هذا الحديث الشريف الذي روي عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال [1]: " العبادة في الهرج كهجرة إلي" [2]

فالعبادة المشبهة بالهجرة هنا هي تلك التي ترتبط بحال مخصوصة ، نص عليها الحديث النبوي الشريف ، واتضح وصفها في كونها عبادة " في الهرج " مما يزيد فضلها ويبين رفعة شانها .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٨٠٩ .
(٢) المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس وسبب كثرة فضل العبادة فيه : أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا أفراد (نفسه).

وبالانتقال إلي خصائص اتجاه لغوي أخر لألفاظ الأساليب البيانية في الحديث الشريف ، فإننا نجد مظهرا آخر من مظاهر الارتكاز علي اللفظ كوحدة لغوية دالة داخل إطار التصوير البياني ، فإلي جانب كونها تشكل أساسا بنيويا من أسس التركيب الأسلوبي للصور ، فإنها تتخذ مقياسا دقيقا لبيان درجات المعني ومنزلته محددة وجهه أو كمه أو أهميته ، ورابطة في الوقت نفسه بين عناصر الصور التي تشتمل عليها لتجمع هذه العناصر في إطار أسلوبي يسوده الاتساق والترابط .

وهنا تتضح إحدى خصائص الأساليب البيانية الدقيقة التي توجه المتلقي إلي فهم أغراض التصوير وأبعاده المعنوية دون تجاوز شيء منها ، موقفة فكره وخياله لدي نقاط محددة واضحة .

ومما يتميز بذلك من الأساليب البيانية تلك التي تشتمل علي ألفاظ لها قدرة التحديد المعنوي في ذاتها نظرا لما يتضمنه معناها من دلالات تتصل بالوزن أو الكم أو بيان المنزلة أو ما تتضمنه من معني المساواة بين الطرفين أو أكثر في الصفة ، أو بيان مقدار الزيادة أو النقص بين هذه الأطراف ، وما إلي ذلك من الطاقات المعنوية التي تتضمنها بعض ألفاظ اللغة مما تزداد دلالته دقة إذا ما وضع ضمن إطار لغوي ملائم لغرضه محقق غايته .

ومن أمثلة ذلك لفظة ((وزن)) التي ترد مضافة إلي ألفاظ يجمعها مجال دلالي واحد ، ومظهر حسي متقارب من حيث تدرجه قوة وضعفا في وزنه وصفته .

وقد ورد ذلك فيما روي عن أنس عن النبي ﷺ قال : (١) "يخرج من النار من قال لا إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير . ويخرج من النار من قال لا اله إلا الله وفي قلبه وزن بُرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير ".

ومن أمثلة ما تضمن ألفاظا تدل علي المماثلة بين طرفين اثنين من حيث " المكان والفضل " ما روي عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال : رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيت اسمها: (٢) " ما منعك أن تحجي معنا ؟ قالت : لم يكن لنا إلا ناضحان فحج أبو ولدها وابنها علي ناضح وترك لنا ناضحا ننضح عليه . قال : فإذا جاء رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة". (٣)

ومن أمثلة ذلك أيضا ما يرد ضمن أسلوب يزيد دلالة التصوير إيضاحا وقوته أثرا بما يشتمل عليه من صيغ التفضيل وأساليب القصر أو التخصيص أو الإجمال الذي يتبعه التفصيل وما إلي ذلك .

---

(١) صحيح البخاري : ١ / ١٠٣ .

(٢) نفسه .

(٣) ناضحان : أي بعيران نستقي بهما . ننضح عليه : بكسر الضاد . وفي رواية : "تقضي حجة " أي تقوم مقامها في الثواب لا انها تعدلها في كل شئ فانه لو كان من عليه حجة فاعتمر في رمضان لا تجزئه عن الحجة صحيح مسلم ٣ / ٣٩٣ .

ومنه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال[1] "ما من أيام أحب إلي الله أن يتعبد له فيها من عشر ذي الحجة ، يعدل صيام كل يوم منها صيام سنة ، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر" .

ومن أمثلة ما تضمن ألفاظا تصويرية تدل علي المماثلة في " المنزلة " مع بيان الفوارق الدقيقة وتحقيق أغراض الأسلوب من حيث المعالجة النفسية والتأثير المرضي لمشاعر المخاطب وإزالة ما قد يتوهمه من أمور مخالفة للواقع ما روي عن عامر بن سعيد بن أبي وقاص عن أبيه قال : قال رسول الله صلي الله عليه لعلي [2] : " أنت مني بمنزلة هارون من موسي إلا انه لا نبي بعدي " وفي رواية[3] أن رسول الله " خلّفه في بعض مغازيه فقال علي : يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان ؟ فقال له رسول الله ﷺ : أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي إلا انه لا نبوة بعدي " .

ومما ورد مشتملا علي ألفاظ تدل علي المماثلة مع المساواة في الصفة المتضمنة كثيرا من الدلالات التي تفهم من ظاهر الألفاظ ومضمون الصورة من جهة وأبعادها الخيالية والفكرية والشعورية من

---

(١) الترمذي : ١ / ١٢٩ .

(٢)صحيح مسلم : ٥ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) صحيح مسلم : ٥ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

جهة أخري ما روي ابن عمر عن النبي ﷺ قال [١] : " اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " وفي رواية : " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " [٢] .

ومما تضمن ألفاظا دالة علي زيادة بعض الموصوفات عن بعض في درجات ما تتصف به من " البعد واللون والطعم والكثرة " باستخدام ما يرتبط بذلك من"صيغ التفضيل " ، في إطار أسلوب مشتمل علي الكثير من العناصر الحسية الموضحة معانيه والمقربة دلالاته ، ومشتمل كذلك علي مجموعة من العناصر التصويرية البيانية التي يتعلق بعضها ببعض ويرتبط به ارتباطا قوي الدلالة لما يتضمنه من عناصر الحركة والصراع وتصوير الهيئات وبيان أهمية الموقف المصور ، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [٣] " إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضا من الثلج ، وأحلي من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، واني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه . قالوا : يا رسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال نعم . لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون علي غرا محجلين من أثر الوضوء " [٤] .

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٣٦ ومختصر صحيح البخاري : ١ / ٢٨٠ .
(٢) قيل معناه : صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة ، والمراد به صلاة النافلة ، أي صلوا النوافل في بيوتكم (نفس المصدر والصفحة) .
(٣) صحيح مسلم : ١ / ٥٣٢ .
(٤) سيما : علامة .

ومما تضمن ألفاظا دالة علي العدد إيضاحا للكم والقدر ، وإبرازا لأهمية المعدود ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [١] "من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر ، فأنزل الله تبارك وتعالي تصديق ذلك في كتابه : " {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } " اليوم بعشرة أيام ".

وتضع الألفاظ الخطوط الواضحة بين درجات متفاوتة لما يبدو متماثلا أو متقاربا في الظاهر مما ينبه إلي الكثير من القيم الكامنة وراء ذلك الظاهر مما يتيسر إدراكه بالملاحظة المجملة للأمور .

ومما يعمق دلالات الأساليب في هذا المجال ويمنحها درجات عالية من العمق والتركيز الشديدين استخدام صيغتي الإفراد والتثنية للفظ الواحد مما يتضمن إلي جانب إيضاح الكم ، بيان وجوه التماثل والتفاوت في آن واحد .

ومن ذلك ما روي عن ثوبان مولي رسول الله ﷺ إن رسول الله ﷺ قال :[٢]" من صلي علي جنازة فله قيراط ، فإن شهد دفنها فله قيراطان، القيراط مثل أحد " وفي رواية [٣] : " سئل النبي صلي الله

(١) الترمذي : ٢ / ١٣١.
(٢) صحيح مسلم : ٢ / ٦١٢ , ٦١٠ .
(٣)نفسه.

عليه وسلم عن القيراط فقال مثل أحد " وفي رواية [١] قال : "أصغرهما مثل أحد " .

ومن الوسائل اللغوية التي تحقق هذه الميزات بدقة ورود مجموعة من الألفاظ التي تربط بينها علاقات تضمها في إطار واحد مشكلة عناصر واضحة لمجموعة من الصور المتتالية المتصلة بمضمون عام لقضية كلية واحدة ، فيكون دور هذه الألفاظ بمثابة المقياس الدقيق الذي تتأمل من خلاله درجات تفاوت كل من جوانب المعني العام عن غيره من الجوانب الأخري زيادة أو نقصا ، سموا أو دنوا .

ومن أمثلة ذلك ما ورد متضمنا ألفاظا مرتبطة بجانبي الحجم والقيمة المادية ، وهي عناصر حسية لا يخفي ما تتضمنه – إذا ما وضعت في سياق بناء لغوي بياني محكم – من دقيق الإيحاء والبيان .

ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [٢] " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما

---

(١) نفسه .
(٢) الترمذي : ٢ / ٥ .

قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .

فمن خلال هذا التتالي وذلك التدرج المترابطين في إطار كلي واحد قامت الصور البيانية بتحقيق غايات الأسلوب حيث وضعت المقاييس الدقيقة التي أظهرت مقدار كل جانب من جوانبها من جهة ومقدار التفاوت بينه وبين غيره من جهة أخري إظهارا حسيا قوي الإيحاء والبيان .

(٣) تنوع الأساليب البيانية وترابطها في الموقف الواحد :

وبتأمل خصائص التركيب اللغوي للأسلوب البياني وما تضمنه من سمات متنوعة يتضح نمط متميز قائم علي تنوع العناصر التعبيرية التي يتركب منها الأسلوب في شكله العام من جهة ، وما يقوم عليه من أسس بلاغية وعناصر داخلية من جهة أخري .

وهنا تجد الصورة البيانية ثراءها وعمق دلالتها ارتكازا علي الكثير من الجوانب البلاغية واللغوية التي يتضمنها الأسلوب ؛ حيث يقوم في جانب كبير منه علي التمهيد لمضمون الصورة ، والاشتمال علي عناصر جذب الانتباه إلي الفكرة ، وعناصر الشرح والتفسير ، وتنوع الأسلوب خبرا وإنشاء ، حقيقة ومجازا وتضمن الكثير من العناصر الحسية المبرزة للمعاني المجردة في صور ملموسة ، فيها الحركة والصوت والانفعال والتشخيص والتجسيد ورسم الهيئات الموصوفة وبيان الفروق بين المتضادات أو المتماثلات ظاهرا مع تفاوت بينها وغير ذلك مما تزخر به أساليب الحديث النبوي الشريف في هذا المجال .

ومما يجتمع فيه الكثير من هذه الخصائص وغيرها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي المقبرة فقال (١) : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت

---

(١) صحيح مسلم : ١ / ٥٣٤ .

أنا قد رأينا إخواننا . قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد . فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله فقال : أرايت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلي يا رسول الله . قال فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم علي الحوض . ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يزذا البعير الضال ... أناديهم ألا هلم . فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك ، فأقول . سحقا سحقا "(١) .

فهذا الأسلوب البياني المتضمن الكثير من العناصر والمتنوع من طرق التعبير وخصائصه قائم علي إيضاح فكرة كلية عامة إيضاحا متعدد الوسائل .

ففيه الربط بين ما هو واقع وما هو آت ، وما كان من الأحداث الماضية، وما سوف يكون .

وفيه التمهيد لجوهر الفكرة ومغزى التعبير ، وإثارة الانتباه إلي أهمية ذلك .

---

(١) (الدهم) : جمع أدهم وهو الأسود ، والدهمة السواد . وأما البهم : فقيل السود أيضا ، وقيل : (البهم) الذي لا يخالط لونا سواه سواء أكان أسود أو ابيض أو أحمر ، بل يكون لونه خالصا . (وأنا فرطهم علي الحوض) معناه : أنا أتقدمهم علي الحوض . يقال . فرط القوم إذا تقدمهم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم الدلا والرشا . (أناديهم : ألا هلم) : معناه : تعالوا تعالوا . (سحقا سحقا) مرتين ومعناه بعدا بعدا .

وفيه الحوار الهادف إلي شرح الحقائق البعيدة التي من شانها أن يغفل عنها ولا يفطن إليها .

وفيه تقريب تلك الحقائق بالتصوير البياني القائم علي التشخيص المتضمن في استعارة تمثيلية دقيقة التركيب متقابلة العناصر في سياق استدراج أسلوبي للمخاطب نحو الإقرار بما لا يعلم من خلال قياسه علي ما يعلم .

وفيه إيضاح مضمون تلك الاستعارة بتقرير مشتمل علي عناصر حسية مبرزة دلالاتها راسمة هيئات الموصوفين وملامحهم . وفيه التشبيه التمثيلي الهادف القائم علي تصوير الصراع بين جانبين متضادين .

وفيه ربط الأحداث بأسبابها والصراع بنتائجه .
وفيه - فضلا عن ذلك كله - عناصر قصصية تدعو الملتقى إلي المتابعة وتشبع حاجة الفكر إلي المعرفة الكلية التي من خلالها تتضح المصائر وتفسر الكثير من الظواهر .

وفيه أيضا تنوع الأسلوب خبرا وإنشاء ، والاحتواء علي العناصر المؤكدة مثل : إن ، وأن ، وقد التي سبقت الفعل الماضي ونون التوكيد الثقيلة والتكرار ، وإسمية الجملة في الكثير من المواضع ، وفيه بيان الشأن والمنزلة بالتنكير والقصر ، وإظهار حسن النقيض باقترانه بنقيضه والعكس .

وفيه حسن التقسيم والجناس القوي الهادف ، والتدبيج ، ودقة الاستخدام اللغوي للألفاظ بما يوضح دلالاتها المحددة ودلالات الأسلوب بوجه عام .

وهذا التنوع الأسلوبي الهادف المتسم بالكثير من الخصائص البلاغية واللغوية المتنوعة لهو من أدق سبل المعالجة الأسلوبية المحكمة لما عظم من القضايا وخفي من ضروب الفكر وأنماطه .

لذا فإن الأساليب التي تعالج قضايا من هذا القبيل تتخذ من هذه الوسائل سبلا لإيضاح مضامينها وبيان غاياتها .

فمن ذلك ما يتعلق بالصلاة من أمور وما يرتبط بأسسها من أسباب وغايات تحتاج إلي ترسيخ في الفكر وتمكين في المشاعر بالترغيب إليها ، وتقريب ما بعد من حقائقها ، والتنفير مما يتنافى وطبيعتها ، مما يقتضي إيضاحه تنوعا أسلوبيا دقيقا ، واختيارا موفقا لعناصره وتراكيبه . ومما تضمن ذلك من أساليب الحديث النبوي الشريف ما

روي عن جابر بن سمرة قال خرج علينا رسول الله ﷺ فقال [1] : "مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس ،.اسكنوا في الصلاة . قال ثم خرج علينا فرآنا حلقا فقال : مالي أراكم عزين ؟ قال : ثم خرج علينا فقال : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف " [2].

فهنا تتلاقي جميع هذه الضروب التعبيرية في إطار واحد إيضاحا لتلك الأسس التي من شأنها أن تستقر في الفكر وترسخ بهيئتها وقيمتها في مجال الوعي والإدراك لارتباطها بفريضة الصلاة .

فهذا الاستفهام الإنكاري الذي وقع من الأسلوب في محل الصدارة تعبيرا عن مأخذ لا يلائم موقف الصلاة وهيئات المصلين لهو من أهم الوسائل التعليمية التي تتضمن التوجيه والإرشاد.

وهذا التشبيه التمثيلي الذي اقترن فيه حال هؤلاء الرافعين أيديهم علي نحو معين بهيئة أذناب الخيل الشمس لهو وصف بقيق لتلك الحال، وما يرتبط بها من الهيئات ، وتعبير عما وراء ذلك من دلالات

---

(١) صحيح مسلم : ٢/ ٧٤ ، ٧٥

(٢) شمس : بإسكان الميم وضمها هي التي لا تستقر ، بل تضطرب وتتحرك بأذنابها وأرجلها، والمراد بالرفع المنهي عنه هنا رفعهم أيديهم عند السلام مشيرين إلي السلام من الجانبين كما صرح بذلك في رواية أخري : (ما شأنكم تشيرون بأيديكم كأنها أذناب خيل شمس ؟ .إذا سلم أحدكم فليلتفت إلي صاحبه ولا يومئ بيده) . فرآنا حلقا بكسر الحاء وفتحها لغتان جمع حلقة بإسكان اللام ..عزين : متفرقين جماعة جماعة الواحدة (عزة)

ترتبط بعدم اكتمال المعرفة بأمور الصلاة ، وتعبير كذلك عن دقة توجيه النبي ﷺ وقدرته البلاغية الرفيعة علي إثارة الانتباه ، والمعالجة الهادفة ، والتوجيه السديد .

ولعل مما منح هذه الصورة البيانية الكثير من الدقة – فضلا عما سلف ذكره – دقة انتقاء الألفاظ الدالة ووضعها مواضعها من الأسلوب، وإتباع الموصوف بصفته التي تبين حالا مخصوصة من بين أحوال محتملة متعددة ، مما يتضح في قوله ﷺ " كأنها أذناب خيل شمس " فوصف الخيل بالشمس بيان لاضطرابها وحركتها المتتابعة علي غير نسق .

ثم إن إتباع هذه الصورة البيانية التي تضمنها ذلك الاستفهام الإنكاري بأمر موجز متعلق بها في جملة : " اسكنوا في الصلاة " تمكين لدلالة الصورة ، وإيضاح لمغزاها ، وبيان توجيهي لأمر مهم يلتقي في رسوخ تام ودلالة الإنكار والتصوير السابقين .

ومثل ذلك يقال فيما ورد بعده من استفهام إنكاري آخر مرتبط بموقف ثان من مواقف الصلاة وهو قوله ﷺ : " مالي أدراكم عزين؟" وما تبعه من تشبيه متضمن الكثير من الترغيب والإرشاد في إطار هذا

الرابط المحكم بين حال إقامة المصلين من الناس للصف في صلاتهم ، وحال الملائكة حين يصفون عند ربهم سبحانه وتعالي .

وإضافة إلي ما تتضمنه هذه الصورة من إيحاءات تبث الكثير من المشاعر في النفس ، وترسم الدقيق من الهيئات أمام العقل ، فإن ورودها ضمن استفهام استدعي استفسارا ، ثم أتبع ببيان واضح لكيفية إتمام الصفوف الأول والتراص في الصفوف قد أتم دلالة التوجيه والإرشاد ، وأوضح غاية جميع العناصر الأسلوبية، التي ظلت تتكامل وتتام حتى أظهرت هذه الدقائق الوارد وصفها وجميع ما يرتبط بها من غايات ، مؤكدة قيمة واحدة ومجتمعة في هيئة واحدة كذلك ، حيث أوضحت هذه المواقف ، وما يلازمها من صفات وملامح وهيئات . . . .

ومن تنوع الأساليب والتقائها في الموقف الواحد كذلك ، أن يرد الأسلوب مشتملا علي مجموعة أجزاء علي هيئة حوار ، متضمنا في مقدمته تصويرا بيانيا واردا علي هيئة ضرب المثل في سياق أسلوب استفهامي يسترعي الانتباه إلي معرفة مغزاه ، فإذا ما تمكن غرض ذلك الاستفهام بتطلع الذهن إلي تلك المعرفة ، ورد جزء آخر مشتمل علي الممثل له ، وموضح مغزاه ومتمم مع سابقة هيئة واحدة لذلك الموقف المصور .

ومما تتضح فيه هذه الخصائص وغيرها في مجال بيان فضل الصلاة ما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :[1] " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . هل يبقي من درنه ؟ قالوا :لا يبقي من دونه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " .

فقد تضمن هذا الأسلوب الكثير والمتنوع من الخصائص ، منها وضع هذا المثل المضروب في مستهل الحديث وتصديره بما يلائم مضمونه من الفعل "رأيتم" المقترن بهمزة الاستفهام ، ووضع الهيئة الكاملة للموصوف أمام العين في إطار يوحي بالكثير من المعاني المتعلقة بالمجاورة في " بباب أحدكم " والاستمرارية في " يغتسل " والتكرار في " كل يوم " ، والتحديد العددي الدقيق الذي يحمل دلالة يمكن استنباطها لارتباطها بالصلاة ، ثم ما تبع ذلك من استفهام مبني عليه " هل يبقى من درنه " ؟ ثم ما ورد من إقرار المخاطبين الذي يشكل تكرارا لفظيا تلقائيا لألفاظ ذلك الاستفهام ، ويشكل في الوقت نفسه جزءا لغويا مهيئا لما بعده من بيان موضح لذلك الجزء السالف ذكره من المثل .

---

(١) الترمذي : ٤ / ٢٢٨ .

وإذا كان التصوير البياني قد استوفي عناصره لدي قوله ﷺ :
" فذلك مثل الصلوات الخمس " ، فإن مغزى الصورة يأخذ طريقه للوضوح وعمق الدلالة حين يتبع هذا الجزء بما يتممه ويخرجه إلي مجال التشخيص الذي يجعله مدركا أمام الحس ، محقق الفائدة في مجال الفكر والعقل ، وذلك في " يمحو الله بهن الخطايا " .

وهذا الأسلوب ذو العناصر المتكاملة قد بلغ هذا الحد من التتام والبيان بهذا التنوع الأسلوبي المتضمن جميع ما سلف ذكره ، مما يشكل في عمومه تمهيدا فكريا ونفسيا ، وتنوعا لغويا بين الخبر الإنشاء، والتقرير والتصوير ، والانتهاء ببيان الغاية من التمثيل وإيضاح قيمته .

وكما أن تنوع الأسلوب يقوم علي هذا الضرب من ضروب التعبير ، فإنه يقوم علي نحو آخر قريب من ذلك ، مع تفاوت في بعض الوجوه ، حيث يتجه التعبير إلي جمع أطراف المعني بين جانبين منحصرين في إطار تتركز داخله الفكرة ، كالقصر وما إليه ، مما يشعر بأن المعنى قد تم واستوفي حقه من التعبير ؛ فإذا به يتبع بجزء شارح لبعض جوانبه ، واضع أمام العقل حقيقة واقعية ثابتة يمكنه إدراكها وتأملها والتوقف لديها بغرض استيعابها في ضوء الحقيقة السابقة ، مستشعرا إتمام المعني أيضا لدي هذه المعاني الكلية . غير أن

الأسلوب لا يتوقف وإنما يعود ليتخذ من حصيلة المعنيين السابقين طرفا في تمثيل عام يوضح مغزى هاما ، وقيمة فكرية معينة لا تتضح إلا في ضوء هذا التمثيل البياني ، الذي يخرج المعاني في صورة ملموسة تزيدها قربا إلي المجالين الفكري والشعوري .

ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : (١) " ما من مولود إلا يولد علي الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة يقول : واقرءوا إن شئتم " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ... " وفي رواية : " كما تنتجون الإبل ، فهل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ " (٢) .

فقد أتبع القصر بشرح يوضحه ، ثم ورد التمثيل المستمد عناصره من الواقع الحسي الملموس في إطار متنوع يبين ضروب الخبر والإنشاء ، والتقرير، والتمثيل ، والتفصيل بعد الإيجاز .

ويقوم التنوع الأسلوبي في هذا المجال – إلي جانب ما سبق – علي ضرب من التدرج من العالم إلي الخاص، ببيان فضل عام أولا ،

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٥١٢ .
(٢) جمعاء مجتمعة الأعضاء سليمة من النقص ، جدعاء : مقطوعة الإذن أو غيرها من الأعضاء .

يتلوه بيان فضل خاص لبعض ما يشتمل عليه سباقه ، ثم بيان فضل الأخص مما اشتمل عليه جميع ما سبق .

والذي يتأمل ذلك الأسلوب يجد نفسه أمام مجموعة من الأساليب البيانية ذات العلاقات المترابطة في هذا الإطار المحكم ، ويجد جميع الجزئيات ساعية إلي بيان جوانب التميز في الموصوفات ، ويجد اللغة مصطبغة باستعمال معين وقد ترابطت معنويا ولفظيا باستخدام الكثير من أدوات العطف ، والتشبيه ، والتأكيد ، والألفاظ المتضادة ، والعناصر الشارحة وغيرها .

ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :[1] اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة . قال معاوية : بلغني أن البطلة السحرة "

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٥٧ .
(٢) (الغمامة والغياية) : كل شئ أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما . قال العلماء : المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين . (فرقان من طير صواف) : الفرقان بكسر الفاء وإسكان الراء قطيعان وجماعتان ، يقال في الواحد : فرق أي جماعة .

فبالنظر إلي الأقسام الأسلوبية الواردة هنا يمكن ملاحظة ثلاثة أقسام واضحة تتتالي علي نحو متدرج من العام إلي الخاص ابتداء بقوله ﷺ : اقرءوا القرآن ... " وانتقالا إلي : " اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ... " وانتهاء بـ : " اقرءوا سورة البقرة ... ".

وبتأمل كل قسم علي حدة نجد تنوعا أسلوبيا من نوع آخر يشتمل فيه القسم الأول علي بيان سبب فضل القراءة حيث " يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه " ، والثاني – إلي جانب بيان الفضل أيضا – علي تنوع عناصر التشبيه تنوعا دقيق الاختيار لعناصره وقد ارتبط كل واحد منها بآخر بأداة العطف " أو " ، بيانا وتقريبا لحقيقة غيبية ووضعا لصورتها أمام العقل لتدخل من خلال الفكر إلي مجال الإدراك والرؤية الحسية.

فهما تأتيان يوم القيامة كأنهما " غمامتان " " أو كأنهما فرقان من طير صواف" وزيادة في بيان ذلك الفضل فانهما " تحاجان عن أصحابهما " .

أما القسم الثالث فإنه خصص سورة البقرة بالذكر بعد أن تضمنها ما سبق سواء أكان في القسم الأول علي سبيل الإجمال ، أو الثاني علي سبيل التفصيل والتعيين ، وقد أشتمل هذا الجزء علي تعبير تقريري واضح متنوع العناصر ، مشتمل علي ثلاثة أقسام داخلية كل

منها يؤكد الآخر ويوضحه ؛ فالأول " أخذها بركة " ونقيضه الذي يؤكده ويوضحه وهو الثاني " وتركها حسرة " وتأكيدا لمغزى ذلك كله ورد القسم الثالث " ولا تستطيعها البطلة " .

وبالنظر إلي ما تضمنه الأسلوب من عناصر الربط والتأكيد ، نجد إلي جانب أشتماله علي الانتقال من العام إلي الخاص مما يتضمن إطنابا مؤكدا للمعاني موضحا أبعادها ، أنه قد تضمن الكثير من العناصر اللغوية الرابطة بين هذه الأقسام الأسلوبية العامة وما تضمنته من الجزئيات .

من ذلك استهلال كل قسم بالفعل " اقرءوا " وإتباع ذلك بما ورود ذكر سببه بعده في " فإنه " تارة و " فإنها " تارة ثانية و " فإن " تارة ثالثة ، وفي ذلك تأكيد بالتكرار تارة ، وتأكيد بالألفاظ المؤكدة في ذاتها تارة أخري ، وربط بين أجزاء الكلام بإعادة بغض عناصره علي الملتقي بشكل منتظم تارة ثالثة .

وكذلك الحال في تكرار " يأتي " و " يوم القيامة " و " سورة " و"البقرة"وحرف العطف " أو " وغير ذلك كواو الجماعة ، و " ألف الاثنين " ، والضمير "هما"ولفظ " وكأن " .

وكذلك يجد الأسلوب التقاء صوتيا بين ألفاظه عن طريق ترديد جرس بعض الألفاظ بشكل منتظم ، له وقعة في النفس والأذن تمشيا مع ما يدل عليه من المعاني ، فإلي جانب تواجد ذلك في الألفاظ المكررة التي سلف ذكرها ، فهو يتواجد في تلك الألفاظ ذات الأوزان المكررة مثل " غمامتان " و "غيايتان"وكذلك " تركها " .

وهكذا ورد الأسلوب متنوع العناصر ، متنوع طرق التعبير، ملتقي العناصر داخل مجال معنوي واحد ترابطت فيه جميع هذه الجزئيات لتؤدي وظائفها وأغراضها المتعددة .

ومن هنا يمكن إدراك ما لتنوع أساليب التعبير الدائرة في مجال فكري واحد من فضل في بيان ما تعبر عنه من المعاني ، وتأكيد ما تهدف إلي إيضاحه وإبرازه من المضامين الهامة تأكيدا يقوم علي إلباس الفكرة الواحدة ذات الجوانب المتعددة، مظاهر تعبيرية متنوعة يسهم كل منها في عرضها علي العقل والنفس بشكل يجدد النظر إليها وتأملها ، ويفتح مجالات التأثر بها والتفكير فيها حتى تنفذ من خلال ذلك كله إلي مجالات فكرية وشعورية ترسخ بها وتستقر فيها واضحة السمات والملامح .

٤) تقابل عناصر الأسلوب البياني والتقاؤها :

ومن أكثر الخصائص اللغوية دقة في هذا المجال ، ارتكاز الأسلوب البياني علي دعامتين من دعائم إظهار المعاني وإبرازها في شكل محكم أتم الإحكام ، حيث يلتقي فيه النقيضان اللذان يمثلان جانبين متقابلين في إطار بياني دقيق تبرز من خلاله الفكرة الواحدة مصحوبة بمؤكداتها وبراهينها وعوامل تميزها .

ومرجع ذلك إلي جانبين اثنين ؛ أما أحدهما فكون الأسلوب مشتملا علي جانب التقابل الأسلوبي الذي لا يخفي ماله من تميز وفضل في بيان حسن النقيضين ببيان سوء نقيضهما مما هو معروف في علم البديع .

وأما الثاني فيكون مشتملا علي التصوير البياني الذي يضع المعاني في إطار أسلوبي مخصوص ، تتجسد فيه هذه المعاني ، أو تشخص فتصير قريبه معروفة بعد أن كانت كامنة في إطار بعيد غير مدرك ، أو ما إلي ذلك مما يضفيه الأسلوب البياني بما يشتمل عليه من خصائص بلاغية متنوعة ، يجمعها تقريب البعيد، وإظهار الغامض ، وإيضاح الخفي ، مما له آثاره الكثيرة في النفس والعقل والإدراك الحسي[١].

وإذا كان هذان الجانبان يمثلان مرجعين ومنطلقين للأسلوب البياني في هذا المجال ، فإن هذا الأسلوب يستمد من منطلقاته اللغوية والبلاغية الأخرى العديد من الخصائص التي تميزه وتجعله محققا من الغايات مالا يحققه غيره من الأساليب .

وتتنوع هذه الخصائص اللغوية والبلاغية بتنوع مجالات الفكر وقضاياه .

فحين يكون التعبير قائما علي تصوير الفرق الفاصل بين نقيضين يصدران في تناقضهما عن تناقض ما بسببهما من الأمور ، فإن الأسلوب يرد مشتملا علي ذكر الأسباب والنتائج مقترنة بإطار من التمثيل الموجز الذي يجمع كلا الجانبين جمعا تتضح عبره وجوه التباين بينهما .

ومن ذلك ما روي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [١] "مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت" .

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٣٧ .

فإلي جانب ما سلف ذكره من أسس يقوم عليها هذا النوع من الأساليب البيانية البديعية ، فإن الكثير من الخصائص اللغوية والبلاغية التي اصطبغ بها التعبير هنا قد حققت غاياته وأظهرت أبعاد ما ينطوي عليه من قضايا فكرية .

من هذه الخصائص الإيجاز مع الوضوح ، وجمع النقيضين مع البدء بالأهم، وتصديرهما بكلمة مثل التي توضح كونهما ممثلين معا ركنا واحد من أركان صورة تشبيهيه واحدة كذلك مما آثاره العقلية في تتبع المعاني سعيا وراء اكتمال وحدة هذه الصورة ذات العناصر المتقابلة .

ومنها كون الجمع بين هذين النقيضين قائما علي الإثبات والنفي من جهة ، والربط بالواو من جهة أخري . ومنها قيام التماثل الذي تتضمنه الصورة البيانية ذات العناصر المتقابلة علي قوة انتقاء ما يؤدي مغزى الأسلوب ويوضحه في جانب المشبه به ذي الجانبين المتضادين تضادا يلائم سابقه حيث يبين الفيصل الواضح بين هذين الجانبين واضعا لفظتي " الحي والميت " بكل ما تشتملان عليه من سمات التضاد والاختلاف أمام الفكر ، فاتحا مجالاته المتعددة وآفاقه الواسعة لينفذ من خلالها إلي تحقيق الغاية التي يرمي إليها هذا التعبير في إطار من التأثير والمعالجة .

ومنها كون هذا الأسلوب مكتفيا بهذا التركيز اللغوي ، ومستغنيا عن التعليق، حيث يفتح ذلك مجالات لإطلاق المعاني وسعة الفكر كما سلف ذكره من جهة ، ولكون الأمر في غني عن الإيضاح حيث لا خفاء ولا إغلاق يستدعي الشرح والتفصيل من جهة ثانية .

وفي إطار من الربط المحكم بين الصفات المتضادة يجد الأسلوب العديد من خصائص التميز ، حيث يجمع جانبين لقضية واحدة في إطار من التصوير البياني لكلا الجانبين المتضادين الملتقيين مما يظهر الفاصل الدقيق بينها .

ويرجع فضل هذه الخصائص إلي كونها تقوم بإيضاح الفروق الدقيقة بين ما يبدو متحدا ومتماثلا في الظاهر، توضيحا يبين فضل بعض جوانبه علي بعض وما بينها من وجوه التباين مما لم يكن معروفا من قبل .

ومن هذا القبيل ما روي عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (١) " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة " .

---

(١) الترمذي : ٤ / ٢٥٢ .

فمن خلال هذا التعبير البياني الذي التقت عبره صفتا الجاهر والمسر بالقراءة من جهة ، والجاهر والمسر بالصدقة من جهة ثانية ، ارتبطت الأولي في الجانب الأول بالأولي في الجانب الثاني والثانية بالثانية ، ليتضح فضل الثانية علي الأولي " لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية ... لأن الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه بالعُجْب ما يخاف عليه في العلانية " (١) .

ولقد تميز هذا الأسلوب بما تميز به سابقه من إيجاز ووضوح وقوة دلالة مع اكتفاء بذلك عن التفصيل والشرح .

أما حين يتعلق التصوير بجوانب متعددة للمتضادين ، يحتاج الفكر في بيانها إلي تحديد وجوه الشبه بين العناصر المتماثلة ، وإيضاح وجوه الاختلاف بين الجوانب المتضادة ، فإن التعبير يتخذ طريقه إلي الشرح والتفصيل وتحديد تلك الوجوه وهذه الجوانب تحديدا واضحا .

ومن الاتجاهات البلاغية لهذا الأسلوب البدء بالجمع بين النقيضين في إطار صورة بيانية ثم الانتقال بعد ذلك إلي بيان أحوال كل منهما .

---

(١) نفسه .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن أبي موسي عن النبي ﷺ أنه قال :[1]
"إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة".

فاجتماع هذين النقيضين " الجليس الصالح والجليس السوء " في إطار لغوي واحد، والجمع بينهما بواو العطف وتصديرهما بما يفيد القصر ، ثم العمد إلي التمثيل " إنما – ومثل " ثم إتباع ذلك بما يتعلق به من تفاصيل ، إخراج للفكرة في إطار متميز يوحي بالكثير من الدلالات والخصائص .

فهو من جهة قصر معبر عن كون الطرف الثاني من التمثيل أي المشبه به مقصودا إليه قصدا بحيث لا يمكن أن يحل محله بديل آخر ، وهذا تمكين لعناصر الصورة البيانية التي تحمل دلالات محددة تجمع بين جميع أطرافها .

ومن جهة أخري فإن هذا التقابل السائر علي نسق واضح مميز بين الطرف الأول وما يشتمل عليه من نقيضين ، والطرف الثاني وما

(١) صحيح : ٥ / ٤٨٤ .

يشتمل عليه كذلك من نقيضين يرتبطان بسابقيهما في إطار من القصر والتمثيل بـ " مثل " ثم " الكاف" تثبيت لهيئة المشبه والمشبه به في كلا الحالين ، وإيضاح لحاليهما مما يستدعي التفكير في تفاصيل تلك الهيئة وهذه الحال ومحاولة استنباط وجوه الشبه بينهما مع وضوحهما مبدئيا من خلال اقتران كل منهما بنقيضه من جهة ومثيله من جهة أخري .

ومن جهة ثالثة فان إتباع ذلك بتفصيل وجوه الشبه في كلا الحالين تفصيلا محددا ومشتملا علي بيان جميع أحوال الموصوف ، بحيث لا يدع احتمالا من وجوه الوصف غير ما ذكر ، يعد ضربا من التحديد والاستقصاء الدقيق ، وسبيلا واضحا للمعالجة والبيان الواضعين للصورة في إطار فكري يحلها محلها الثابت من العقل والنفس والخيال .

ومن جهة رابعة فإن اجتماع جميع هذه العناصر علي هذا النحو يمنحها صفة التميز والتجدد في الذاكرة لما تستدعيه المواقف المتعددة من معانيها وتستلهمه من دلالاتها .

ويتخذ هذا النمط الأسلوبي في الحديث الشريف اتجاها آخر من خلال بيان الأحوال المتعددة للموصوف الواحد مستقلة ، قبل ذكر ما

يضاده ، ثم الانتقال بعد تفصيل هذه الأحوال إلي نقيضه وتفصيل القول فيه كذلك .

ومن أمثلته ما روي عن إبراهيم بن كعب بن مالك عن أبيه كعب قال : قال رسول الله ﷺ :[1] " مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتعدلها أخري حتى تهيج ، ومثل الكافر كمثل الأرزة المُجْذية علي أصلها ، لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة "

وفي رواية [2] : عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمن كمثل الزرع لا يزال الرياح تفيئه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد " .

فهنا نجد الفصل بين المتضادين من جهة والجمع بينهما من جهة أخري، مما يشتمل علي الكثير من الميزات الأسلوبية والبلاغية التي تضع المضمون موضعه من الوضوح وقوة الدلالة ودقة المعالجة .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٦٧٥ . الخامة : الطاقة والقصبة اللينة من الزرع وألفها منقلبة عن واو أما تميلها وتفيئها فمعني واحد ، ومعناه : تقلبها الريح يمينا وشمالا . ومعني تصرعها : تخفضها ، وتعدلها بفتح التاء وكسر الدال ، ومعني تهيج : تيبس .
(٢) الترمذي : ٤ / ٢٢٧ .

أما فصلهما فهو ما سلفت الإشارة إليه حيث استهل ببيان حال أحدهما وتفصيل ما يتغلق به قبل الانتقال إلي نقيضه .

وفي تقديمه علي هذا النحو المستقل بيان فضله وسمو شأنه ورفعته عن أن يدمج مع ما هو أقل منه شأنا ، ليأخذ فرصته للوضوح وبيان تلك المكانة المستقلة .

وأما الجمع بينهما في سياق أسلوبي واحد ارتبطا فيه بواو العطف من جهة ، وبكونهما نقيضين من جهة أخري ، وبتصوير حال كليهما وما يترتب عليه من دلالات من جهة ثالثة ، ففيه بيان لما بينهما من فروق فاصلة ، وتباين تام .

وفيه فضلا عن ذلك معالجة شاملة لجميع ما يتعلق بحاليهما من أمور مما له تأثيره المزدوج إقناعا للعقل وإرضاء للمشاعر .

وفي الأسلوب بوجه عام – إلي جانب ذلك – قوة تركيز المعاني بمنحها صورة حسية ثابتة أمام الإدراك مما يثري دلالاتها ويقوى تعلقها بالذاكرة ويقرب قيمتها المعنوية إلي العقل .

ومن خلال اتجاه أسلوبي آخر نجد تصوير المتضادين وبيان الفروق بينهما يتخذ غير ذلك من خصائص التميز اللغوية والبلاغية .

فحين يشترك المتضادان في وصف خارجي واحد مع اختلاف جوهري بينهما ، فإن بيانهما يأخذ طريقة للتعبير البياني المتدرج في إيضاح الفكرة متجاوزا مجرد تصوير النقيضين إلي تصوير ما بينهما من درجات تقوي لديها صفة أحد هذين الطرفين أو تضعف ، تصويرا يضع أيدي المتلقين علي حقيقة كل من هذه الأطراف المذكورة ، ويخرج في نهاية الأمر النقيضين اللذين يمثلان طرفي الفكرة في إطار بارز من الوضوح وبيان الفوارق الفاصلة .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبي ما روي عن أنس عن أبي موسي الأشعري قال [1] : قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترنجه ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ريحها مر وطعمها مر " .

---

(١) الترمذي : ٤ / ٢٢٧ .

فهنا يجد الأسلوب هذا البسط التفصيلي لدرجات متفاوتة بين الموصوفات التي تتحد اتحاد خارجيا في بعض الصفات مع تفاوت جوهري بينها ينم عن تناقضها التام ذي الوجوه المتعددة ، فمن جهة يوجد تضاد واضح بين المؤمن والمنافق ، ومن جهة أخري يوجد تضاد آخر بين قراءة القرآن وعدم القراءة .

أما التلاقي الظاهري في الصفات ، فيتضح من خلال ذلك التماثل الخارجي في القراءة بين المؤمن والمنافق مع اختلاف الحقيقة في الحالين .

لذا تواجدت مجموعة من الدرجات التي صار إيضاح ووضع الفواصل بينها من الأمور التي تتطلب دقة أسلوبية ، وقدرة لغوية معينة فورد الأسلوب علي هذه الشاكلة التي أبرزت كلا من درجات الوصف إبرازا يحلها محلها المعنوي والدلالي الذي لا تلتبس عبره بما سبقها أو لحقها ، بل تستقل بذاتها من جهة ، ويظهر في ضوئها الفروق الدلالية بينها وبين ما دنا منها أو علا فوقها من جهة ثانية علي النحو التمثيلي الذي أخذ طريقه إلي تفصيل وجوه الشبه إيضاحا لهذه الفوارق الدقيقة .

وتظهر البراعة في طريقة التعبير ويتضح فضله بقدر ما يكون الموقف دقيقا والفروق خفية بعيدة .

ومن ذلك ما تشتمل عليه أحوال النفس من انفعالات وسمات تتضاد أحيانا وتلتقي في تماثل أو تقارب أحيانا أخرى ، مما يمكن أن يستشعر داخليا ويصعب التعبير عنه في الغالب .

وحين يتجه الأسلوب البياني في الحديث الشريف إلي معالجة تلك الجوانب فإنه يقدم نسقا خاصا من طرق التعبير البلاغي التي تتضمن الكثير من خصائص البيان ووسائل الكشف عن حقائق ذلك العالم الخفي من غوامض النفس البشرية .

ومما يعتري النفس من انفعالات وأحوال متضادة القناعة والطمع،والرضا والغضب ، والفرح والحزن ، وغيرها مما يصعب وصفه وتحديد درجة قوته أو ضعفه مما يتطلب تعبيرا دقيقا في إيضاحه ، وعمدا إلي التمثيل له بما يشابهه أو يدانيه لعله يخرج من الخفاء إلي الظهور ، ومن الغموض إلي الوضوح .

ومما يتميز به أسلوب الحديث النبوي في هذا المجال ربط الصورة البيانية التي تعالج أحوال النفس وتوضحها بتجربة عملية

تسهم في تعميقها وتزيد من سمات ظهورها مما تتحقق من خلاله غايات التعبير المتعددة .

ومن أمثلة هذا الضرب من التعبير تصوير صفتي القناعة والطمع وما يترتب علي كلتيهما من أمور ويرتبط بهما من مظاهر تصويرا بيانيا هادفا ومنه ما روي عن حكيم بن حزام قال (١) : "سألت النبي ﷺ : فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : إن هذا المال خُضْرَة حُلْوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " .

وهكذا تم بيان الصفتين المذكورتين بجلاء ، وتم للمعالجة اللغوية الاكتمال ، كما تم تحقيق غايات الأسلوب ؛ من التأثير والإقناع والتوجيه . وقد تحقق جميع ذلك من خلال اجتماع تلك الخصائص اللغوية والبلاغية التي تميز بها هذا الأسلوب ، حيث اجتمع فيه الربط بين المضمون الفكري والتجربة الواقعية المرتبطة بشخصية الراوي مما يؤكد هذا المضمون ويوضحه ويجعله قريبا مفهوم المغزى .

---

(٢) صحيح مسلم : ٣ / ٧٥ .

كما اجتمع فيه اتحاد الفعل مع تناقض الوصف ، فالصفتان المتضادتان"الأخذ بطيب النفس " و " الأخذ بإشراف نفس " مع ما يترتب عليهما من أمور متضادة كذلك تلتقي جميعها في اتحاد ظاهري لفعل واحد وهو الأخذ ؛ فالموصوف في الحالين آخذ للمال مع اختلاف المنطق والصفة والشعور .

كما اجتمع في تصوير المال بما ينطوي عليه ذكره من إشارة إلي رغبة النفوس فيه والحرص عليه – الوجود والزوال " لان الخضروات لا تبقي ولا تراد للبقاء " [1] .

ثم اجتمع في تصوير الأخذ بإشراف نفس نقيضان كذلك ، هما الأخذ مع عدم القناعة في جانب ، والأكل مع عدم الشبع في جانب آخر . وشبه الأول بالثاني بيانا لحاله وإيضاحا لصفته ، وأخيرا اجتمع في نهاية الحديث الشريف ذكر موصوفين متضادين موضحين مغزى ما سبق ومؤكدين له وهما " اليد العليا واليد السلفى " .

ومن خلال تنوع الأساليب البيانية في هذا المجال إيجازا وإطنابا ، إشارة وتفصيلا ، نجد ضربا من الاتجاه إلي تصوير دوافع النفس وما تتسم به من سمات متضادة ينفذ التصوير عبره من الصفة

---

(١) نفسه .

النفسية إلي ما وراءها من المصادر والمنطقات مصورا قوة تأثيرها في تلك الصفة وما يصاحبها من المظاهر الخلقية الملازمة لها .

ومن الواضح أن طبيعة هذه الدوافع وتلك المنطلقات أدق خفاء وأبعد غموضا من غيرها مما يتطلب ضربا أسلوبيا خاصا يخرجها إلي مجال الإدراك والاستعياب .

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف يسوق هذه الدوافع وما يرتبط بها من مصادر ومنطلقات مقترنة بما ينفر منها أو يرغب فيها من الصور الحسية ، التي تحمل طاقات شعورية مؤثرة في الملتقي تأثيرات متعددة، تعينه علي الانفعال بها وتخيلها وإدراكها وبغضها أو الإقبال عليها ، وتضع أمام عينيه هيئة يستطيع أن يتأملها كلما علقت ذاكرته بموقف يستدعيها ، حتى تتحقق لديه من خلال هذه الهيئة المدركة وذلك الشعور المحسوس غايات الصورة نفسيا وشعوريا وفكريا .

ومن أمثلة ذلك تصوير حالي البخيل والمتصدق فيما رواه الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:(١) " مثل المنفق والمتصدق كمثل

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ٥٨ ، ٦٠ ، وصحيح البخاري ٣٣٩ / ٣٤٠ . وقد مر هذا الحديث في ((الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف وخصائصها)) من هذا البحث .

رجل عليه جبتان أو جنتان من لدن ثديهما إلي تراقيهما ، فإذا أراد المنفق " وفي رواية : " فإذا أراد المتصدق " أن يتصدق سبغت عليه أو مَرَّت وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت عليه وأخذت كل حلقة موضعها حتى تُجِنَّ بنانه وتعفو أثره . قال : فقال أبو هريرة فقال: يوسعها فلا تتسع " .

فمن خلال هذا التشبيه التمثيلي الدقيق لكلا الحالين ، ومن خلال تقابلهما المبني علي تضاد جميع عناصر التصوير البياني ومنطلقاته ، ومن خلال اكتمال الهيئتين شعوريا وحسيا ، حقق الأسلوب جميع غاياته وترك ظلاله الدائمة في جميع المواقف والأحوال التي تستدعيه .

وعبر قوة تركيز الأسلوب واحتوائه علي مجموعات متعددة من الطاقات الدلالية في هذا المجال ، يجد المتأمل ضربا من التعبير البياني الموجز الذي يترك فكرة التضاد بين مجالين متقابلين مختلفين ، إلي فكرة التضاد في المجال الواحد، متخذا نهجا فكريا متميزا ينبه من خلاله الأذهان ، ويجذب الأنظار إلي ما يتغافل عنه من حقائق التناقض في الذات الواحدة التي قد لا يظن وجودها بها .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبي ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال :[1] " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلي هذه مرة والي هذه مرة " .

وقد تميز الأسلوب هنا بالاكتفاء بصورة بيانية واحدة ، صور بها حال ذلك الموصوف الواحد الذي تضمن حالين متضادين ، كما تميز بقوة بيان هذين الحالين من خلال إتباع الإجمال بالتفصيل الذي وضحه متضمنا رسم هيئته وحركته وصفته النفسية .

ومن الاتجاهات الأسلوبية التي يرتكز عليها التعبير من خلال التصوير البياني من جهة ، والتضاد الماثل في موصوف واحد من جهة أخرى ، اتجاه آخر ، لا تكون الصفتان المتضادتان المذكورتان فيه مما يجتمع في آن واحد ، بل تكونان من الصفات التي يمكن أن يتصف بها ذلك الموصوف ، ولا يخلو حاله من أن يكون متصفا بواحدة منهما .

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:[1] " إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة ،

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٦٥٣ . العائرة : المترددة الحائرة لا تدري لأيهما تتبع ، ومعنى تعير : أي تردد وتذهب .

إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت " وفي رواية عن أبي موسي عن النبي ﷺ قال : (٢) "تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها " .

ومن خلال هذه النماذج التي تعد مجرد بعض من كل عظيم القيمة متعدد الخصائص يمكن إدراك ما لاجتماع جانبي التصوير والمقابلة القائمة علي تضاد عناصر جانبي القضية الواحدة من أهمية في إبراز الأفكار التي يعالجها الأسلوب على نحو واضح . وإذا ما أدركت هذه الحقيقة في ضوء ما للأسلوب من خصائص لغوية وبلاغية متنوعة كما سبق إيضاحه أمكن التعرف علي مجموعة من الميزات التي يختص بها الأسلوب النبوي الشريف في هذا المجال .

---

(١) ، (٢) صحيح مسلم : ٢ / ٤٤٣ ، ٤٤٦ .

(٥) بناء الصور البيانية وتكامل عناصرها :

ترد التراكيب البلاغية للصور البيانية في الحديث الشريف متنوعة ومتعددة ، وفقا لما تعبر عنه من المضامين وتعالجه من المواقف وتهدف إلي تحقيقه من الغايات .

ومن خلال هذه المنطلقات تتخذ الصور البيانية أشكالها البلاغية المختلفة ، وأوضاعها الأسلوبية المتميزة التي تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية المجردة وتحديد معالم المعاني المبهمة التي لا يستطيع العقل إدراكها وتصويرها إلا بعد تأمل تلك التراكيب وفهم ما تتضمنه من مجالات وتدور في فلكه من القضايا .

وحين يتأمل الدارس التراكيب البلاغية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف ، محاولا حصر أشكال تلك التراكيب أو الإلمام بمجموعات متماثلة تشكل ظواهر بارزة فيه ؛ فإنه يجد كما كبيرا من هذه التراكيب المتنوعة في خصائصها والمتعددة في أشكالها وسماتها .

ويقوم تنوع هذه التراكيب وتنوع خصائصها و آثارها علي تنوع مواضع ما تشتمل عليه من العناصر وفقا لما يدل عليه كل عنصر في موضعه من الدلالات ، ويرتبط به من مجالات التأثير .

ويقوم أيضا علي تنوع ما تشتمل عليه من ركائز بيان المعني، وتحقيق الغرض سواء أكان ذلك متصلا بالألفاظ أم بالوسائل البيانية المساعدة علي تحديد المضمون وتجسيد الفكرة ، كالجوانب الخيالية أو العناصر الحسية أو ما يتصل بعوامل التأثير الشعوري المتنوعة .

والذي تجدر ملاحظته في مجالات جميع التصوير وطرائقه أن الصورة البيانية – تركيبا وأسلوبا وخصائص – هي كل لا يتجزأ ، فمهما اتخذت من الأوضاع ، واشتملت عليه من العناصر ، وعبرت عنه من القضايا والمجالات فهي في كل حال وحدة كلية لا يمكن تجزئتها أو تفكيك عناصرها أو إبعاد بعض جوانبها عن البعض الآخر.

لذا فإنه يمكن القول بأن النظرة إلي الصورة البيانية القائمة علي التعبير البلاغي الجزئي كالتشبيه أو الاستعارة أو الكناية ، لا يمكن أن تكون نظرة مكتملة الجوانب والظلال إلا إذا تمت في ضوء النظرة الشاملة لما وردت ضمنه تلك الصور الجزئية من أساليب وارتبطت به

من المواقف ، وصدرت عنه من التجارب ، وسعت إلي تحقيقه من الغايات .

وهذه العلاقات الوطيدة هي التي تشكل النمط وتحدد الهيئة الأسلوبية التي يرد عليها التصوير البلاغي ، مما يدعو إلي القول بأن بعض الصور تتسم بسمات لا تتسم بها غيرها ، وبعضها الآخر يختص بسمات أخرى لا ترد فيما عداها .

لذا أمكن تصنيف الصور البيانية في الحديث النبوي الشريف في هذا المجال تصنيفا لا يقوم علي تفكيك العناصر أو إبعاد الكل عن الجزء أو العكس ، بل يقوم علي ما تتسم به مجموعات الصور المتقاربة في خصائصها من سمات متقاربة كذلك من خلال ارتكازها علي عناصر أو وسائل تعبيرية تجمعها سمة كلية واحدة.

وكذلك من خلال الارتكاز على بعض جوانب إبراز الدلالة والغاية كتقديم بعض أجزاء الصورة علي بعض ، أو استخدام بعض الأساليب المهيئة لإدراك المعني وفهم المضمون ، أو المؤثرة تأثيرا معينا مبرزا مكانة بعض الجوانب علي بعض، أو غير ذلك من المقاييس التي يتم من خلالها تصنيف هذه الصور والتعرف علي خصائصها .

ويقوم بناء الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف على جانبين متكاملين ؛ أما أحدهما فهو تقديم الوسائل التي تؤدي المعني وتعالج المضمون، ويتحقق من خلالها نقل الفكرة إلي السامع في إطار متعدد الوظائف ، وأما الآخر فهو العناية بالمتلقي فكريا وشعوريا وحسيا حتى يؤتي الأسلوب ثماره فيُفهمه مالم يفهم ويقرب إليه مالم يدرك ، ويشعره بما جمدت مشاعره إزاءه ، ويخرج إليه كوامن المعاني التي لم يعلم من أمرها إلا ما ظهر أو أجمل .

وبناء علي ذلك وردت الصور البيانية في الحديث النبوي الشريف ضمن أساليب قائمة علي دقة اختيار عناصرها بما يناسب هذين الحالين معا ، طبيعة المعني وما يدور في إطاره من أفكار وقضايا من جهة ، وطبيعة المتلقين وما يلائم عقولهم ومشاعرهم من جهة أخري ، مع التميز التام بصفة تجريد جميع هذه الجوانب لتصلح للمعالجة العامة الدائمة دون توقف لدي مكان أو عصر .

لذا كان من الضروري قيام الدارسة في هذا المجال علي تأمل هذه الجوانب جميعها ، وإبراز قيمة الجانبين اللذين يمثلان محوري الأسلوب مما سلف ذكره واستنباط ما يتسم به كلاهما من خصائص وسمات مميزة .

وهنا يجد المتأمل مجموعة من الاتجاهات التي يَجمع كل منها بدوره مجموعة من الخصائص والسمات التي تشتمل عليها الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف .

منها تقسيم الأسلوب إلي مجموعة من الأقسام ، كل منها يقوم بأداء معني مستقل يمكن التوقف لديه وفهمه فهما يمثل مرحلة من مراحل بناء المعني العام . ثم بناء هذه الأقسام بعضها علي بعض في ترتيب متنام العناصر ، يبني فيه اللاحق علي السابق ، ويوضح فيه كل الآخر ، في تقريب للفكرة شيئا فشيئا حتى تصير من الفهم المجمل إلي الإدراك المفصل ، حسيا وشعوريا وفكريا ، فيكون لها من الثبوت في الذاكرة والشعور ما ينشأ عن قوة تقديمها إليهما ، وإحكام تمكنها فيهما.

هذا من جهة ، ومن جهة أخري فإن هذا الاتجاه يتميز بكون الصورة البيانية قائمة علي عناصر منتقاة من بين ما يمكن تصور نموه أو تصاعده أو تدرجه ، وبناء بعضه علي بعض من العناصر التي تمثل المعني في جميع جوانبه الجزئية المترابطة في شكل حلقات متصلة ، أو لبنات متصاعدة القوي ، لترسم في نهاية الأمر الشكل الكلي العام الذي تتصاعد وتنمو معه أفكار المتلقي ومشاعره ليستوعب ويستشعر المضمون الفكري بوجه تام .

ومما يوضح هذا الاتجاه وما يشتمل عليه من الخصائص ما روي عن أبي هريرة - رضي الله - عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [1] " إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد ، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات " "ويمحق الله الربا ويربي الصدقات " وفي رواية عن أبي هريرة (أيضا) قال : قال رسول الله ﷺ : [2] " وما تصدق أحد بصدقه من طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله" .

فبالنظر إلي هذه الأقسام التي ورد عليها الأسلوب وكيفية أداء المعاني من خلالها ، ودرجات تأثيرها في إيضاح المعني العام يمكن ملاحظة ذلك التنقل الفكري عبر مجموعة من الأجزاء التي بني بعضها علي بعض ، ففي : " إن الله يقبل الصدقة " معنى مستقل وفكرة تامة ، وفي : " ويأخذها بيمينه " معني مستقل تام كذلك مبني علي سابقه موضح أثره وفضله ، وفي : " فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره " إيضاح للقسمين السابقين ، وتصوير لشأن الصدقة

---

(١) ، (٢) الترمذي : ٢ / ٨٦ ، ٨٥ .

ومكانتها وثوابها ومضاعفة ذلك الثواب ، فضلا عن أن لذلك كله من الآثار الشعورية ما ينشا عنه الترغيب والحرص ، وفي " حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد " تأكيد لسابقه ورسم دقيق لعناصر الصورة وأخذ بأطراف المعني ، وإيضاح لجميع جوانبه ، وفيه زيادة عليه ، لأنه صورة مبنية علي صورة ، فالأولي وضحت مطلق العناية ، والثانية بينت الغاية ورسمت الهيئة وقربت المقدار . ثم اختتم ذلك كله بتأكيده للمتلقي بذكر ما يصدقه من كتاب الله عز وجل .

وبالنظر إلي ما تدل عليه العناصر التي ركبت منها الصورة واشتمل عليها الأسلوب يمكن ملاحظة ذلك النمو الذي سادها جميعها . وهو نمو يأخذ بيد المتلقي ليستوعب ويفهم ويقترب من حقيقة لا يدركها.

وقد قام هذا النمو علي محاور دارت حولها المعاني منها : محاور لفظية ماثلة في الألفاظ التي تضمنت معني النمو والاتجاه نحو غاية ، والاشتمال علي هيئات متغيرة للموصوفات ، متدرجة في نمو تلقائي من الأصغر إلي الأكبر ، ومن الأقل إلي الأكثر كما هو الحال في : " يربيها ويربي " الدالتين بصيغة المضارعة علي الاستمرار والتجدد ، وبما اشتملتا عليه من المعني علي مطلق العناية والرعاية ، وكذلك في استخدام ما يفيد الغاية من الألفاظ كما هو الحال في "

حتى"والصيرورة كما هو الحال في " تصير " . وكذلك استخدام ما يدل علي العناية بالمخاطب وجذب انتباهه كما هو الحال في " أحدكم " و " مهره " ، ومنها محاور حسية تمنح الملتقي القدرة علي تصوير الفكرة واستيعابها وترسم أمامه هيئة واضحة الملامح للموصوف ، بحيث يستطيع إدراكه إدراكا يخرجه من نطاق الفكر المجرد إلي المشاهدة والتصور ، من خلال عرض صورته عليه عرضا جزئيا متتابعا ، ومتكاملا ، يرى فيه ذلك الموصوف في حالة من النمو والتصاعد ، حتى يقف من خلال متابعته علي ما ينبغي عليه أن يراه ، من سماته الموضحة قدره ، ومنزلته ، والمثبتة في الوقت نفسه ما يلازمه من مشاعر الترغيب فيه ، والإقبال عليه ، فيترك ذلك كله في نفسه من الأثر المستمر ، وفي عقله من القيمة الفكرية ، ما يظل ما نحا إياه مجموعة من القدرات النفسية والذهنية والحسية المتعددة .

ومن ذلك ما تحقق من خلال هاتين الصورتين البيانيتين اللتين رسمتا هيئة نمو الصدقة وثوابها حيث وردت أولاً في قوله ﷺ : "...فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره " ثم وردت ثانيا في انتقال حسي لهيئتها إلى صورة أخرى اقترنت فيها برسم هيئة ثانية لحجمها ومقدارها ووزنها وقيمتها في " حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد " .

ومن الاتجاهات البارزة القريبة من ذلك قيام الأسلوب البياني بإيضاح مشهد حسي واحد ذي جوانب متعددة إيضاحا مفصلا بتقسيمه إلى مجموعة من الصور الحسية التي يعبر كل منها عن موقف متعلق بذلك المشهد الكلي العام ، وممثل مرحلة من مراحله ، ترتبط بما قبلها وما بعدها ، ارتباط الجزء بالكل ارتباطا وثيقاً عبر تلك المشاهد المتتالية التي يمكن تأمل ملامحها وإدراك هيئاتها ومشاهدة ما يسودها ويلازمها من حركات وشخصيات وانفعالات وكأنها مشهد قصصي موجز جامع لموسوعة قصصية متعددة الأجزاء .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [١] "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فانا آخذ بحجزكم وأنتم تَقَحَّمون فيها " .

وفي رواية عن أبي هريرة أيضا : "مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها ، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ، ويَغْلِبْنَهُ ، فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني تقحَّمون فيها ".
وفي رواية عن جابر : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل

---

(١) الترمذي : ٤ / ٤٣٠ ، وصحيح مسلم : ٥ / ١٤٧ .

الجنادب والفراش يقعِن فيها وهو يَذُبُّهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تَـقَلَّتون من يدي " .

ومن أبرز ميزات هذا الأسلوب أنه يجذب فكر المتلقي وخياله إلي متابعة ما يحتويه من المشاهد الزاخرة بعوامل إثارة المشاعر ودوافع استنباط مغزى كل مشهد منها ، حتى تؤدي به إلي معايشة الأسلوب والاندماج فيه ، وقوة الإحساس به صدورا عن كونه طرفا من أطرافه ، فإذا به يظفر من خلال ذلك كله بالغاية التي يرمي إليها الأسلوب ويهدف إلي تحقيقها .

ونظرا لتعدد المواقف التي يصورها ذلك المشهد العام ، ونظرا لما تزخر به من العوامل سالفة الذكر ، ونظرا إلي كون ذلك مجموعا في إطار معدود الألفاظ ، قصير العبارات ، إذا ما قورن بما يحتويه من المعاني والقضايا ؛ فإن المتلقي يجد نفسه تلقائيا مسترجعا جميع عناصره محاولا معاودة تأملها في سلسلة متتابعة من المحاولات التي تنشأ عما يحمله ذلك التشبيه التمثيلي في كل استرجاع له من إيجاءات وآثار لا تتناهى ، وما يتميز به من قدرة علي احتواء مالا حصر له من القضايا والموضوعات .

ومن الاتجاهات الواضحة في هذا المجال ـ فضلا عما سبق ـ الاتجاه إلي تصدير الأسلوب البياني بصورة كلية موجزة ، ثم إتباعها باستثناء يوحي بشان مستثني معين من تلك الصورة ، دون التعريف بذلك المستثني من أول الأمر ، حيث يترك الأسلوب الفرصة للمتلقي لكي يستشعر مكانته ويتنبه إلي أهميته ، وذلك برسم مجموعة من الهيئات والصفات المتعلقة به ، حتى إذا ما تم ذلك ورد المستثني متمكنا في موضعه من الصورة تمكنه من عقل المتلقي ونفسه ، فيكون اكتمال المعني مرتبطا بهذا الاكتمال الذي نَمَتْ من خلاله الصورة فحققت غاياتها في بناء تام متماسك العناصر .

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (١) " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتني بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت لبنة فيتم بنيانك ؟، فقال محمد ﷺ فكنت أنا اللبنة . وفي رواية : " فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " .

فهذه الصورة البيانية الكلية التي وردت موجزة ـ بالرغم من تعدد عناصرها ـ في صدر هذا الأسلوب قد أفادت ببنائها هذا معني

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ١٤٨-. والترمذي : ٤ / ٢٢٥ .

كليا مقترنا بهيئة حسية يستطيع المتلقي بإدراكها استيعاب مضمونها وتامل جوانبها والإلمام بعناصرها ، وبعد أن تم له ذلك فوجئ بعنصر لغوي دعاه إلي استرجاع الصورة وتأمل هيئتها تأملا ثانيا ، وذلك حين وردت لفظة " إلا " التي أفادت الاستثناء ، ثم تبعتها مجموعة من العناصر التي أشارت إلي صفة ذلك المستثني دون التعريف به ، فظل عقل المتلقي مفكرا ، وشعوره عالقا بتلك الهيئة باحثا عن تكاملها وتتام عناصرها متابعا ما يرتبط بها من هيئات وأحوال حتى تحقق له ما أراد، فجاءته تتمة الصورة التي بها اكتملت هيئتها ، وتحققت دلالتها في وضع متمكن من السياق الأسلوبي البياني ، وفي إطار إيجاز قوي دال في : " فكنت أنا اللبنة " .

وبناء علي ذلك فإن كلا من هذه القضايا تأخذ مكانتها من الأسلوب وتظل المعاني المرتبطة بها في تصاعد ونمو تتكامل عبره جزئياتها حتى تجتمع لدى تلك الدلالة الواحدة في نهاية الأمر .

وقد يقوم بناء الصورة البيانية في هذا المجال علي تناول أجزاء بعض عناصرها التي تعد بمثابة المحور البارز فيها تناولا وصفيا موضحا مغزى الصورة ، ومظهرا أبعاد المعني وظلاله ، وما يترتب عليه من الآثار ، وذلك عبر تعليق بياني تابع لصورة بيانية موجزة وموضح لها .

وهذا الأسلوب له من الخصائص المؤثرة في قوة أداء المعني وإيصال المضمون إلي المتلقي ما يعد منهجا أسلوبيا متميزا بذاته .

فهو من جهة تفصيل بعد إجمال ، أو إيضاح بعد إبهام ومن جهة أخرى هو تأكيد لمضمون الصورة البيانية السابقة ، بتعليق بياني كذلك في عبارة لاحقة .وهو – فضلا عن ذلك – تناول للمعني الذي تتضمنه الصورة المجملة من جهة أو جهات ، يتضح عبره تميز عناصرها وفضل مغزاها ودلالتها ، وفضل انتقائها للتعبير عن ذلك المعني دون سواها .

وهو – إلي جانب ذلك كله – بناء تصاعدي للمعاني يتم عبره تركيب بعض العناصر وبناء أسماها على أدناها في شكل نمو متدرج يأخذ بيد المتلقي إلي ما يهدف الأسلوب إلي تحقيقه لديه فكريا وشعوريا.

ومما يوضح ذلك النمط الأسلوبي البياني ما روي عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : [١] " المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكي رأسه تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وفي رواية : " المسلمون كرجل واحد ، إن اشتكي عينه اشتكي كله وإن اشتكي رأسه

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٤٤٧ .

تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وفي رواية : " وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى ".

ومما يوضح ذلك أيضا ما روي عن أبي موسي قال : قال رسول الله ﷺ: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " .

فهذا التعبير البياني الوارد في صورة تشبيهيه في الحالين يرسم هيئة حسية للموصوفات يستطيع المتلقي أن ينظر إليها نظرة كلية عامة حال إيجازها ، وحين يرد عليه ذلك التعليق الموضح عناصرها ومغزاها في كلا الحالين أيضا يستطيع أن يسترجعها ثانية في تأمل تتلاحم فيه مجموعة من العوامل التي نفذت عبر التعبير البياني إلى مجالات الفكر والشعور والحس ، وبذلك التلاحم التام يتم الربط بين مضمون الصورة من جهة ، ومضمون واقعي حسي معهود مقرب لمغزاها من جهة أخرى ، فينتج عن ذلك إيضاح أبعاد المعني وتحقيق غايات الأسلوب .

ويتخذ بناء الصورة في الحديث النبوي الشريف نهجا أسلوبيا خاصا في إيضاح دلالة الصورة وإبراز بعض جوانبها ، حين يؤدي ورود عناصرها مركبة علي نحو مخصوص إلى تحقيق غاية التصوير وأثره وأهداف الأسلوب ودلالته .

وهنا يتضح العديد من خصائص التصوير البياني القائم علي العناية بأوضاع العناصر الأسلوبية المرتبطة بوظائف سياقية مخصوصة ، بحيث يجد المتأمل لهذه الأوضاع مدى القدرة على الربط بين أداء المعاني عن طريق الألفاظ والصور وإيصال أهمية هذه المعاني وآثارها ومالها من ميزات خاصة إلى المتلقي .

فقد يكون الأسلوب مشتملا على صورة بيانية تشكل جزءا من أجزائه ، وحين يتقدم هذا الجزء يكون لتقدمه دلالة خاصة وميزة ظاهرة .

ومما يوضح ذلك ما روي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : [1]" ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا " .

فبتأمل هذا التعبير البياني يمكن ملاحظة فضل استهلاله بقولهﷺ : " ذاق طعم الإيمان " وما توحي به كلمة ذاق من مشاعر مرتبطة بالراحة والاطمئنان والسكينة ، وما يلازمها من استشعار حسي مقترن بالكلمات المتجاورة : ذاق وطعم والإيمان ، ثم ما يوحي به جميع ذلك

---

(١) صحيح مسلم : ١/ ٢٠٧ .

من فضل وأهمية من خلال تقديم هذه الصورة الاستعارية التي تمثل أثرا لمؤثر مذكور بعده .

وإذا كان من المعلوم أن المؤثر يسبق الأثر في الوجود علم حينئذ مغزى تقديم الأثر في مثل هذا الوضع التركيبي ، إبرازا لشأنه ، وإشعارا للمتلقي بفضله ، وبيانا لمكانته .

وقد تكون الصورة البيانية مستقلة بأداء المعني ممثلة أسلوب الحديث كله ، فترد علي هيئة مخصوصة يتقدم عبرها بعض العناصر على خلاف المعهود تحقيقا لغايات مرتبطة بذلك .

ومن أمثلة ذلك ما روي عن عامر بن مسعود عن النبي ﷺ قال :[1] "الغنيمة الباردة الصوم في الشتاء " .

فمن المعهود تقديم المشبه على المشبه به لكي يؤدي التشبيه وظيفة بيانية يتحقق من خلالها إيضاح المعني وتقريب ما بعد من دلالاته ، أما حين يتخطى الأمر ذلك لتحقيق وظائف أخري وإبراز آثار أكثر بعدا فإنه يحتاج إلى بعض العوامل المساعدة والعناصر الشارحة مما يمكن أن يرد في صورة تعليق أو تأكيد أو اعتراض أو ما إلي ذلك .

---

(١) الترمذي : ٢ / ١٤٦ .

وحين يستغني عن ذلك كله ويعمد إلي تقديم دال هادف أو تأخير محقق نفس الغاية فإن الأسلوب يكون قد تميز بقوة الدلالة مع الاحتفاظ بالإيجاز الموحي والقدرة علي تخطي مرحلة الاستعانة بغير حدود الصورة البيانية بما يحقق قوة التعبير وقوة أثره.

وهذا ما تحقق من خلال تقديم المشبه به " الغنيمة الباردة " على المشبه "الصوم في الشتاء " .

وبالرغم مما ورد عليه التصوير هنا من الإيجاز فقد اشتمل علي الوصف الحسي المرتبط بالمجال الشعوري وذلك في وصف " الغنيمة " بالباردة ، كما أشتمل على ما أفاد التحديد الزمني المقيد للمعني فيما أتبع به المشبه " الصوم " من قوله ﷺ : " في الشتاء " فضلا عن دقة اختيار الألفاظ وقوة دلالة كل منها في ذاته .

وتتجه الصورة البيانية إلى تحقيق المزيد من الغايات ، عبر ما ترتكز عليه من أوضاع متسقة اتساقا تاما مع ما تدل عليه من المضامين ، وتعالجه من القضايا في كل مجال من مجالات التعبير .

فحين تتجه إلى مجالات الترهيب والزجر متجاوزة مجرد إبراز الدلالة أو تقريب الحقيقة أو تصوير المعاني من أجل تجسيدها وإيصالها إلى

مجالات الإدراك ؛ فإن عناصر التعبير البياني ترد مترابطة في بناء محكم مبرزة مدي شدة الأثر أو قوة الصفة وحدتها ، أو هول الموقف ورهبته أو ما إلي ذلك من الدلالات .

ويتخذ التصوير حينئذ من التفصيل وبناء الجمل بعضها علي بعض ، وقوة انتقاء العناصر الحسية ذات التأثير الملائم لهذه المجالات ، كما يتخذ مِنَ الموازنة والمفاضلة بين عناصر الصور طريقا واضحا لإبراز دلالات تلك الصورة البيانية.

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (١) " لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلي جلده خير له من أن يجلس على قبر " .

فبناء عناصر هذه الصورة البيانية على هذا النحو الذي استهلت فيه بما يشعر بالهول والرهبة وهو الجلوس علي جمرة ، ثم بناء أثره عليه وذكره بعده زيادة لبيان ذلك الأثر ، وتأكيدا لتحقيق وقوعه وبثا لاستشعاره في نفس المتلقي في "فتحرق ثيابه " ، ثم بلوغ ذلك الذروة من القوة والتركيز فيما أتبع به وبني عليه في " فتخلص إلي جلده " ، كل ذلك له من قوة الدلالة علي المعني والإيحاء به ما يدع المتلقي في حالة من البحث والاستنباط ومحاولة فهم ما ترمي هذه الصورة إلي

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٦٣٢ .

بيانه حتى إذا ما جاءه التصريح بما جهد في استشعاره وحاول فهمه تمكن من عقله تمكنه من شعوره ، ووضع موضعه من نفسه فعلم خطره ، وخاف أثره وهوله .

ولقد زاد من دقة التعبير وقوة التصوير هنا تلك المفاضلة التي تمت بين جانبي التصوير ، حيث وضع ما بدا مهولا خطيرا مما يعلمه المتلقي موضعا أهون شأنا وأقل خطرا من موضع ما بدا له بسيطا سهلا مألوفا من الأمور .

وورود هذه المفاضلة على غير المعهود لديه كان له دوره في مفاجأة ذهنه وجذب انتباهه وتحقيق عنصر الدهشة في نفسه مما يسهم في إثبات الموقف وأثره في ذاكرته واستشعاره كلما عاودت تلك الذاكرة استحضاره .

وفيما يقابل ذلك من مجالات الترغيب والتبشير يتخذ بناء الصورة البيانية أوضاعا مبرزة مدى فضل الموصوف وأهميته ، أو سمو الموقف ومكانته ، أو علو الشأن وقوة أثر ما يتعلق به .

وهنا يجد المتأمل اتساع المجال لبسط العبارة ، والعناية بالعناصر الممهدة ، وجذب فكر المتلقي وإثارة تنبهه ، وبث عناصر

التأثير المرضي في نفسه ترغيبا له في الإقبال على المعرفة وجعله طرفا في محاورة هادفة تأخذ بيده لأن يسبر غور فكره ، ويستنبط كوامن القدرات التي يتمتع بها عقله .

ومما يجمع العديد من خصائص هذا الاتجاه الأسلوبي وسماته ما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ:[1] إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله . قال : فقال هي النخلة . قال : فذكرت ذلك لعمر . قال لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا و كذا " .

فهذا الأسلوب البياني الذي بنيت فيه عناصر التعبير علي هذا النحو قد اكتسب من قوة الدلالة علي المعني ، وتمكن صورته الحسية في النفس مقترنة بهيئتها المرئية أمام التصور ، ما جعله صورة ثابتة فكريا وشعوريا وحسيا للمتلقي.

فقد استهلت الصورة هنا بهذا التمهيد الذهني الذي تضمن صرف الذهن إلي فكرة محددة مقترنة بوصف معين لموصوف خاص دون

---

(١) صحيح مسلم: ٥ / ٦٧٦ ، والترمذي : ٤ / ٢٢٨ ، وصحيح البخاري : ١ / ١٤٥ .

التصريح به ثم اتخذت تلك الفكرة عنصرا بارزا يمثل طرفا من طرفي صورة تشبيهية.

وبينما ترك التصريح بذلك الطرف صرح بالطرف الآخر بعثا للمتلقي علي التنقيب والمعرفة وتثبيت ما يقترن به من صفات هادفة . وبعد أن تحقق جميع ذلك ورد طلب التعيين والتعريف تحقيقا لغرض جميع ما سبق .

ثم أتبع ذلك بما بني عليه وهيأ لتحقيق غرضه حيث ترك المجال للمتلقين للمنافسة حول المعرفة ، حتى إذا بلغ الأمر مبلغه ، وجاء التسليم بعدم بلوغ تلك الغاية حيث أتبع جميع ذلك بالتماس تعيين ذلك الموصوف الذي يمثل المشبه به في تلك الصورة ، فورد متمكنا في سياق تمكنه في المجالين الفكري والشعوري محققا جميع الغايات المترتبة علي ذلك .

ولما كان المشبه به هو الجامع لدلالات الوصف الجزئية ومبرزا إياها في تقريب لما يماثلها في جانب المشبه ، فقد تحققت غايات هذا الجمع والإظهار والتقريب بتركيز التعبير حول صفات المشبه به وإتاحة فرصة تأمله قبل معرفته .

ولقد أدى جميع ذلك إلى أن سَبقت معرفة الصفات معرفة الموصوف ، كما سبقت معرفة المشبه به المشبه ، فحين عرف الموصوف الذي هو المشبه به جاءت معرفته ملازمة صفاته ، وحين عرف المشبه ثبت له جميع ما تدل عليه تلك الصفات وما يرتبط بها من هيئات في تركيز دلالي قوي حول فكرتي دوام النفع ، وكثرة وجوه الخير حسيا ومعنويا.

ومما يتميز به التصوير البياني في هذا المجال تضمنه للألفاظ المرتبطة بمجالات الشعور واتخاذها وسائل لحث المتلقي علي معايشة القضية المطروحة واستشعار آثارها ، ثم وضع هذه الألفاظ في محل الصدارة من الأسلوب .

ومما يوضح ذلك ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: (١) "أيحب أحدكم إذا رجع إلي أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم . قال : فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خَلِفات عظام سمان".

فاستهلال الأسلوب هنا بلفظة " يحب " الواردة بعد همزة الاستفهام قد أفاد الكثير من الوظائف بما يحمله من طاقات معنوية

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٥٦ . الخلفات بفتح الخاء وكسر اللام الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها .

تتصل بدلالته ، وشعورية تتصل بنفس المتلقي ، وذهنية تتعلق بجذب إمكاناته الفكرية إلى ما سيرد عليه من مضمون العبارة التالية وما يترتب عليها من الأمور .

كما أن إتباع ذلك بفاعله ، وتخصيص المخاطب بلفظه ، وإضافته إلى ضمير الجمع الدال على المخاطبين ، له الفضل الكبير في تأكيد الوظائف السابقة للفظة "أيحب" ، ثم توجيه الطاقة الفكرية والشعورية للمخاطب إلى العناية بالقضية المطروحة صدورا عن استشعاره أهميتها وكونها متصلة به .

ولقد مهد ذلك كله لتمكن ما ورد بعده من عناصر الصورة البيانية التي اشتملت على جانب واقعي يتصل بحياة المخاطبين ، ومجالات عنايتهم ، وتضمنت عنصرا قويا من عناصر المفاجأة في ارتباط وثيق بأسلوب من أساليب الشرط ، وتحديد عددي دقيق للموصوفات ، وعناية بإبرازها في إطار من الوصف الحسي المتجه إلى رسم هيئتها وبيان مقدار تميزها .

هذا كله فضلا عن تضمن هذا الأسلوب جانب استدعاء المخاطب للمشاركة التعبيرية التي تجعل منه طرفا في حوار هادف ، ليرد بعد ذلك دور إتمام الصورة في إيضاح لجانبها الآخر الذى يتضمن

التصريح بمغزى الاستفهام الوارد في صدر هذا الأسلوب مما مكن للمعاني ، وحقق آثار التصوير وجمع بين أطرافه في تركيب بياني متصل الحلقات .

ولقد أسهمت فكرة المفاضلة بين جانبي الصورة وتميز جانب المشبه – الذي لم يكن مقدار فضله معلوما – علي المشبه به الذي يصل مقداره إلي أسمي درجات العناية لدي المخاطب في بيان مغزى ذلك التصوير وتحقيق غاياته .

وهكذا يمكن ملاحظة ما لوسائل بناء الصور البيانية في أسلوب الحديث النبوي الشريف من أوضاع متنوعة ترتبط بغايات محققة من خلال ما تقوم به من ارتكاز علي عناصر لغوية وبلاغية ، في ارتباطها بمجالات التعبير وقضايا الفكر من جهة ، وتعلقها بحياة المتلقين وقدراتهم الفكرية والشعورية من جهة أخري ، فوردت متنوعة الاتجاهات عديدة الخصائص ، مترابطة العناصر في بناء داخلي نام ، متجه نحو ذروة تلتقي لديها غاياته وتتحقق دلالاته .

(٦) الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف بين المجالين الفكري المجرد والدلالي المحدد :

يتسع الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف ليستوعب مجالات الفكر وضروبه اتساعا كبيرا .

وقضايا الفكر هي تلك المضامين التي يتخذ العقل منها مجالات للتأمل والنظر بغرض دراستها واستيعابها والتوصل إلي حقائقها أو صفاتها أو أبعادها .

غير أنه من المعلوم أن هذه القضايا تتسع للكثير من الاحتمالات ووجوه التأويل لما تتضمنه من جوانب وتتشعب إليه من جزئيات غير محددة .

أما حين ينتقل المضمون الفكري إلى المظهر التعبيري عن طريق اللغة فإنه يأخذ طريقه إلى التحديد والتوضيح .
غير أن هاتين الصفتين – التحديد والتوضيح – ترتبطان بسمات الأسلوب وما يتميز به من خصائص ، مما يشكل الأساليب بدرجات متعددة ومتفاوتة في تحقيق غاياتها .

ذلك أن القدرة علي الإلمام بجانبي الأسلوب – الفكري والتعبيري – والقدرة علي تحقيق سمات مخصوصة للجانب التعبيري ، بحيث يؤدي المضمون الفكري كما هو بالدرجة التي يقصد إليها المتكلم ، وبالتأثير المحدد الذي ينشده من وراء تعبيره أمر صعب تحقيقه لما يتطلبه من قدرات خاصة علي انتقاء الألفاظ الدالة والصور الموحية ، وما يرتبط به من قدرات متعددة علي ربط الأسلوب بالموقف ، ونسج التركيب علي وجه مخصوص ، وتكييف التعبير ليصل إلي مختلف القدرات الفكرية ويعالج ما يتضمنه من القضايا معالجة مجردة من حدود الزمان والمكان .

وفي هذا المجال تتضح الكثير من خصائص الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الفكرة الذهنية المجردة مقاييسها الدقيقة المحدد التي تحمل دلالتها وتوحي بالمقصود منها دون زيادة أو نقص .

وبتنوع مجالات التعبير وأغراضه تتنوع هذه المقاييس تنوعا ملحوظا .

ومن المجالات التي تتطلب قدرة خاصة علي وضع مقياس بياني محدد معبر عنها تعبيرا دقيقا مجال التعبير عن الوقت ، وتحديد فترة زمنية

بعينها لبيان ما يتعلق بها من أمور ارتباطا بفكرة خاصة أو إبرازا لفضل عمل معين يحسن أداؤه فيها دون سواها .

ومن ذلك تحديد وقت صلاة الضحى وبيان أفضل وقت تؤدي فيه .

وهذا مجال يتطلب القدرة علي استخراج عناصر لغوية وصور تقوم بإيصال ما تتضمنه من أفكار في إطار من الوضوح والتحديد الدقيقين .

وهنا نجد تميز الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف بالكلمة الدالة الموحية المتضمنة تحديدا دقيقا ، وتعبيرا هادفا ، لا يتجاوز دلالة الأسلوب ، بل يوقف العقل والحس لدي ما يهدف إلي بيانه من المضامين ويعبر عنه من الوجوه .

ومما يوضح ذلك ما روي عن القاسم الشيباني أن زيد بن أرقم رأى قوما يصلون من الضحى فقال أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل . إن رسول الله ﷺ قال:(١) " صلاة الأوابين حين تَرْمَض الفصال " .

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ٤٠٠ - ترمض بفتح التاء كعلم يعلم والرمضاء : الرمل الذي اشتدت حرارته بالشمس أي حين تحترق أخفاف الفصال وهي الصغار من أولاد الإبل من شدة حر الرمل . الأواب : المطيع ، وقيل الراجع إلى الطاعة . قيل : (هذا أفضل وقت صلاة الضحى وإن كانت تجوز من طلوع الشمس إلى الزوال .

فهذه الكناية الدقيقة قد وضعت مقياسا حسيا واقعيا لا لبس فيه ولا غموض لهذه الفكرة التي تضمنها الأسلوب ، فالوقت صار محددا ، والعمل المفضل في ذلك الوقت صار واضحا ، وفضل ذلك العمل ارتبط بوصف فاعليه وما هم عليه من الحال ليكون بينا ظاهرا.

وذلك المقياس الحسي الواقعي المأخوذ من جانبيه الحسي المستشعر ، والواقعي المشاهد في لفظتي : " ترمض الفصال " قد أدى جميع ما أداه من الوظائف بما يحمل من طاقات متعددة في ظل ما ورد به من أسلوب منتقى الألفاظ دقيق التركيب .

وقد أسهمت كل لفظة في هذا التركيب بوجه عام في بيان الفكرة العامة المجردة وتحديد دلالتها تحديدا دقيقا .

فلفظة " الصلاة " تدل على فكرة عامة معروفة ، ولكن إضافتها للفظة "الأوابين " بما تحمله من صيغة المبالغة حددت الدلالة ووضحت المقصود فهي صلاة المطيعين أو الراجعين إلى الطاعة ، دون غيرهم ، أما لفظة " حين " فقد وجهت الأذهان نحو التحديد والتمييز ، ليعلم وقت تلك الصلاة بعد أن علم فضلها ، أما هذه الكناية " ترمض الفصال " فقد ساقت المعنى مصحوبا بدليله ، والفكرة مقترنة بمقياسها فلم تدع مجالا لشك ، أو اتساعا لفكر عن دائرتها المحددة

حيث جمعت من بعض مظاهر الطبيعة في ذلك الوقت مركزا إشاريا إلي دلالة مخصوصة ، فشدة حرارة الشمس وتأثر أخفاف صغار الإبل بها لشدة حرارة الرمال هي ذلك المقياس الذي بمقتضاه صار للفكرة حدودها وللدلالة معالمها الواضحة .

ومما يتضح فيه دقة وضع المقياس البياني اللغوي القائم على إيضاح الفروق وبيان وجوه الفضل مجال التفاوت في الأعمال ، وما يترتب عليه من التفاوت في مراتب السمو والتميز .

ذلك أنه مجال مرتبط بجوانب معنوية متشبعة ، وأسباب خفية تتعلق بإمكانات البشر المتفاوتة ، وعزائمهم المستترة وما يتعلق بذلك من النوايا وما يترتب عليه من الفوارق .

ومن الأمثلة الموضحة ذلك ما روي عن عائشة أم المؤمنين قالت : قال رسول الله ﷺ : (١) " أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا ، قالت : فكُنَّ يتطاولن أيتهن أطول يدا . قالت : فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق " .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٣١٨ .

فقد قام التحديد الدلالي هنا علي ركيزة بيانية حسية ماثلة في هذه الكناية التي أخرجت المعني المجرد في هذا الإطار الحسي الملموس المحدد .

فصفة الطول صفة حسية ، والموصوف بها وهو اليد شيء حسي كذلك ، وقد صيغ هذا الوصف في لفظه دالة على بلوغ الحد الأسمي للصفة وهي صيغة " أفعل " التفضيل مضافة إلى ضمير الجمع . وهذا التحديد الحسي الواضح قد أبرز الدلالة وأثبت الفكرة وأوضح معالمها.

وقد تحقق جميع ذلك في ظلال هذا الأسلوب الموجز الموحي بجميع عناصره ، فلفظة أسرعكن بما تضمنته من معني وصيغة ، وما أضيفت إليه من ضمير جمع ، وما دلت عليه من قرب الزمن والحدث، ثم ما تبعها من لفظة " لحاقا " التي توضح دلالتها ، وتميز معناها ، وما تلا ذلك مفيدا معني التكريم والتفضيل في المتعلق " بي " ، قد التقي جميع ذلك من جوانبه الدلالية والصوتية والتأثيرية بهذه الكناية الموجزة " أطولكن يدا " محققا غاية واضحة ، وواضعا ذلك المقياس الحسي مقترنا بتلك الحقيقة التي تضمنها .

وتضع الصورة البيانية العنصر الحسي مؤيدا بهيئة حسية للموصوف ليتم من خلال ذلك بيان مجموعة الصفات المعنوية والملامح الحسية التي اجتمعت فيه فأحلته محلاً متميزا .

ومما يوضح ذلك ما روى عن معاوية أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :(1) " المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة " .

وتخرج الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف ما يمكن من المعاني ، وما يستتر من الأبعاد والنتائج غير الظاهرة ، مقربة ما بعد من الحقائق تقريبا شعوريا حسيا يدرك المتلقي من خلاله تلك الغوامض في هيئة حسية ملموسة .

وقد تكون تلك المعاني الخفية التي تبرزها الصورة البيانية مخالفة لما هو معلوم في الظاهر ومدرك للحواس ، فتأتي الصورة البيانية على خلاف المعهود واضعة المعالم الظاهرة للمعاني المبهمة الغامضة ، فتتمكن في مرأي العين تمكنها في الشعور والعقل .

ومن أمثلة ذلك ماروى عن الحارث بن سويد عن عبد الله قال:(2) دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فمسته بيدي ، فقلت : يا

---

(1) صحيح مسلم : ٢-١٥ .

(٢) صحيح مسلم : ٥ / ٤٣٤ ، ٤٣٥ . والوعك بإسكان العين هو الحمى وقيل ألمها .

رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال رسول الله - صلي الله عليه وسلم - :" أجل . إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قال : ذلك أن لك أجرين ؟ فقال رسول الله ﷺ "أجل . ثم قال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها " .

ومنه ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب – أو أم المسيَّب – فقال :" مالك يا أم السائب – أو يا أم المسيب – تزفزفين ؟ فقالت : الحمى . لا بارك الله فيها . فقال : لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكيرُ خَبث الحديد " .

وفي هاتين الصورتين البيانيتين يتجلى أثر قوة أداء المعني من جهة ، وقوة انتقاء عناصر الصورة البيانية من جهة أخرى ، فسواء أكانت في الأولى هيئة الشجرة التي تحط أوراقها هي محور الدلالة ومركز الأداء التأثيري أم الثانية الماثلة في إذهاب الكير خبث الحديد فقد أفادت كلتاهما في سياقها معني قوة الإذهاب ، وشدة الأثر مع بيان الهيئة ، ودقة رسم صورة المحو والإزالة .

وقد ورد ذلك كله مبينا ذلك المعني الكامن على خلاف المعهود، فإذا كان المرض مسببا للألم ، والألم مسببا للضجر وسوء الأثر النفسي ؛ فقد أوردت الصورة البيانية في هذين الموضعين جانباً غير

معهود على خلاف ذلك ؛ فالمرض مسبب لحط السيئات أو ذهاب الخطايا ، وذلك – دون شك – مسبب للراحة والاطمئنان .

كما أن ارتباط كلتا الصورتين بهيئة حسية ملموسة للإدراك في إطار محبب إلى النفس أمر له بالغ الأثر في تقريب أثر الصورتين وتأكيد دلاليتهما للعقل ، وإيجاد عنصر الترغيب والإقبال والاقتناع لدى المتلقي .

وقد لا ترد تلك المعاني التي توضحها الصورة وتحدد معالمها على خلاف المعهود ؛ بل تكون معلومة في إطار محدود لا يتجاوز الحقائق القريبة المدركة ، فترد الصورة البيانية موضحة أبعادا أكثر منها اهمية ، وأعظم منها شأنا مما يكون له أثره في ازدياد تأكيد فضلها ، وسمو شأنها ، فتحصل من ذلك زيادة الإقبال عليها ، والالتزام بالقيام بها .

ومن ذلك تصوير ما يترتب على بعض الأعمال أو الأقوال من أجر ومنزلة فترد الصورة البيانية مخرجة ذلك في إطار حسي قريب إلى الإدراك رابطة المقدمات بالنتائج ، والأسباب بالمسببات .

ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول [1] :

---

(١)-صحيح البخاري : ١ / ٢٣٥ ، والترمزي : ٢ / ٥٩ ، وصحيح مسلم : ٥٣١/١-

" إن أمتي يدعون يوم القيامة " غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل " .

وتختص الصورة البيانية في الحديث الشريف – فضلا عن ذلك– بالربط بين التجربة الواقعية المأخوذة من حياة البشر ، والفكرة الذهنية الغريبة على عقولهم ومداركهم ، تقريبا لدلالتها وإيضاحا لمغزاها وإثباتا لحقيقتها في التصور والشعور معا .

وورود ذلك الربط بين الفكرة الذهنية والحقيقة العملية الواقعية، مما يتطلب سياقا خاصا وخصائص معينة حتى يتمكن التعبير من تحقيق غاياته وبلوغ أثره .

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث الشريف متميزا بجانبين ظاهرين ؛ أما أحدهما فالقدرة على استدراج المخاطب استدراجا يجعل منه طرفا في حوار هادف ، يتم من خلاله جذب ذهنه لمعايشة التجربة الواقعية وفهمها واستيعابها ، والحكم عليها بموضوعية تؤهله لاستيعاب ما سيرد عليه بعدها والتسليم به .

وأما الثاني فهو القدرة على انتقاء هذه التجربة ، بحيث تكون مناسبة تمام المناسبة للاقتران بتلك الفكرة الذهنية التي يعمد الأسلوب لتقريبها والصورة للإقناع بها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ:[1] مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كَنَفَتِيْهِ ، فمرَّ بِجَدْيٍ أسكَّ ميِّت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال :" أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : " أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم " .

وتتضح قيمة هذا الأسلوب وما يتضمنه من عناصر منتقاة ومركبة تركيبا بلاغيا ولغويا دقيقا ، حتي يتمكن المتأمل من استخلاص مغزي التعبير هنا ، متوقفا عند هذه النهاية التي اختتم بها الحديث :

" فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم " حيث اجتمعت لديها جميع الجزئيات السابقة عليها ، كما أدت جانبي التأثير والإفهام في آن واحد . ولكن ذلك لم يكن ليتحقق بنفس الدرجة من القوة بمعزل عن تلك المقدمات السابقة عليه ، وما تضمنته من حوار واشتملت عليه من مناقشة العقول والمشاعر في قضية واقعية واضحة مأخوذة من واقع الحياة ، وما أدى إليه جميع ذلك من إقرار جماعي لا خلاف عليه ، ولا على جانب من جوانبه متمثل في قولهم : والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ " مما أدى إلى التسليم التام بالحقيقة الواردة بعده .

---

(١) صحيح مسلم :- ٥/ ٨١٤ . كنفتيه : جانبيه . أسك : صغير الأذنين .

فهنا اجتمعت للأسلوب من خصائص القوة ما هيأ المشاعر، وأقنع العقول ، وأفسح المجال لإثبات المعني بدليله وحجته وتأثيره .

أما حين تكون الفكرة الذهنية البعيدة عن المدارك والعقول من الأمور التي تتجاوز الواقع وتجاربه إلى ما وراءه ؛ فإن الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف تورد تلك الفكرة في إطار آخر بحيث تتضح أبعادها غير المتناهية ، وتظهر آثارها غير الواضحة رابطة القريب بالبعيد ، والظاهر بالمستتر مما يكون له عظيم الأثر وقوى الوقع على النفس ومشاعرها والعقل ومداركه .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أنس بن مالك قال بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال [1] " عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً . قال : فما أتي على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه ، قال : غَطَّوْا رءوسهم ولهم خَنين ... " .

فذلك العلم الذي لم يحيطوا به لكونه غير واقع تحت مداركهم على النحو الذي أدركه رسول الله ﷺ قد اتخذ وضعا بلاغيا لغويا حقق به ذلك التأثير الملموس فيما كان من القوم حيث " غطوا رءوسهم "

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ . الخنين : صوت البكاء وهو دون الانتحاب قيل : وأصل الخنين خروج الصوت من الأنف كالحنين وقال الخليل : هو صوت فيه غنة ، وقال الأصمعيّ : " إذا تردد بكاؤه فصار في كونه غنة فهو خنين .

وصار " لهم خنين " وذلك لشدة تأثرهم به ، وشعورهم بهوله وشدة وقعه على نفوسهم .

وقد أخذت الفكرة التي تضمنها الأسلوب هنا طريقها إلى ذلك عن طريق هذه الكناية الدالة داخل إطارها المقيد بأداة الشرط " لو " التي قامت بإحكام الربط بين الشرط والجواب في ذلك الإيجاز الدال الذي اجتمعت خلاله المعرفة المطلقة بالحقيقة في " لو تعلمون ما أعلم" بالأثر العلمي في الأفعال والمشاعر والحواس في " لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً " ، مما صار له دلالته على هول ذلك العلم وقوة أثره وبعد مداه وخطورة جميع ذلك .

ويتجه التعبير البياني في الحديث الشريف إلى اختيار الألفاظ المقيدة للمعاني اختياراً دقيقا يقوم على ركيزتين ، الأولى هي اختيار الكلمة الموحية بالمعني المحدد الدال على قيمة الفكرة ، والموحي بما لها من أثر وأهمية من جهة ، والثانية هي القدرة على وضع الكلمة من الأسلوب موضعها الذي تحقق من خلاله جميع ما سيقت لأجله من الغايات .

وهنا يتجلى دور الصورة البيانية في وضع الملامح وتحديد الأبعاد وجمع الصفات بالقدر المنشود دون تجاوز للمدى أو تقصير عنه .

فحين تكون الفكرة دالة على التناقص المتتالي المفضي إلى التناهي أو التلاشي ؛ فإن ألفاظ الصورة تقوم بدقة التعبير عن ذلك على هذا الوجه الذي يتضح فيما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال : [1]" ألا مَنْ وَلِيَ يتيما له مال " فليتجر فيه ولا يتركه حتي تأكله الصدقة " فهذه الاستعارة التي دلت على معني الإنقاص المستمر في " تأكله الصدقة " قد وضعت الفكرة موضعها ورسمت ملامحها وحددت أبعادها وآثارها .

ولقد تحقق جميع ذلك من خلال قوة دلالة كلمة " تأكله " الدالة على الاستمرار في الإنقاص من جهة ، وتقييد المعني بدخول " حتي " على الفعل المضارع مما أفاد تحقيق غاية ذلك الإنقاص وبلوغه مداه من جهة ثانية ، وقوة تركيب الصورة داخل سياقها حيث سبقت بما وضحها وأظهر المقصود منها فوردت متمكنة فيها من جهة ثالثة .

وحين تكون الفكرة دالة على الإبعاد أو الانفصال أو الحرمان أو المنع أو ما يتصل بذلك من المعاني المتعلقة بالضرر وشدة الأثر وبلوغهما مبلغا قويا غير معلوم المدى ، ترد الصورة البيانية موضحة معالم ذلك وواضعة الألفاظ الدالة عليه موضعها الدقيق .

---

(١) الترمزي : ٢/ ٧٦ .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : [1]
" الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله " قال أبو عبد الله :
" يتركم أعمالكم وَتَرْتَ الرجل إذا قتلت له قتيلا أو أخذت له مالا " .

وهنا يتضح من معالم الفكرة ما كان خافيا ، حيث أخرج مالم يدرك خطره وأثره مخرجا اتضح عبره هوله وشدة أثره . وإنما تم ذلك في إطار هذا الاختيار الدقيق لألفاظ الصورة التشبيهية التي ارتكزت على انتقاء لفظة " وتر " الدالة على القتل أو الأخذ أوهما معاً للتعبير عن كامل الفقد وتمام التجرد مما يشير إلى جوهر الفكرة وينم عن عظيم قيمة القضية التي يوضحها التعبير بوجه عام وهي أهمية صلاة العصر وما يترتب على أدائها في وقتها ثم ما يترتب على فواتها وعدم المحافظة عليها من أمور .

ويتجه التعبير البياني في الحديث النبوي الشريف اتجاهاً نفسيا يضع عبره معالم الفكرة واضحة الحدود والملامح .

فحين يكون الموقف متطلبا المعالجة النفسية أو مرتكزا على الجانب الشعوري أو منطلقا منه ، ترد الصورة البيانية مشتملة على الألفاظ الدالة على ذلك الموقف والمعبرة عنه أدق تعبير مقدمة المعالجة المنشودة ومؤثرة بالقدر الذي يتطلبه الموقف ويقتضيه المقام .

---

(١) مختصر صحيح البخاري : ١/ ١٤٨ .

ويتخذ التعبير هنا اتجاهات كثيرة ، تتنوع بتنوع مجالاته وقضاياه .

منها قيام التعبير على الجمع بين اللفظة ونقيضها في إطار يتكرر عبره هذان النقيضان إيضاحا لدلالة واحدة يلتقيان لديها ، وتأكيدا لفكرة يعبران عنها ، وتأثيرا بصورة بيانية تمثل جانبا من الأسلوب المشتمل عليهما .

ومن ذلك ما روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (١)

" ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار " .

فمجالات التحديد الدلالي للفكرة هنا قائمة على عدة جوانب :

منها : اختيار الألفاظ ذات الدلالة النفسية وهي " أحب – يحب – لا يحبه – يكره – كما يكره " ، وهي قائمة على علاقات وثيقة ؛ فبعضها قائم على الاشتقاق ، وجميعها مترابط في إطار عام يقوم على فكرة التقابل .

---

(١) صحيح مسلم : ١ / ٢١٧.

ومنها : كون هذه الألفاظ ذات الدلالة النفسية متفقة مع طبيعة القضية التي تعبر عنها وهي :" فضل الإيمان وعظيم أثره " مما يتعلق بالقلب والنفس ومجالات الشعور التي لا يدرك ما يتعلق بها إلا باستخدام ما يدل عليها من الألفاظ ، ووضعها موضعها من الأساليب الدالة التي تقوم بتحقيق الجانبين التأثيري والتعبيري في آن واحد .

ومنها : الإجمال ثم التفصيل واستخدام ما يحقق الجانبين من وسائل التعبير كلفظ العدد وضمير الجمع من جهة ، والتكرار والإيضاح القائم على التفصيل المشتمل على أساليب التفضيل والقصر ثم التشبيه .

ومنها : إخراج كوامن المعني وغوامضه مخرجا حسيا قريبا للإدراك بوضع مقياس بياني دقيق له كما هو الحال في بيان فكرة وجوب الحرص على الإيمان والمحافظة على جوهره بهذا التشبيه الدقيق :" وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار " .

ومن اتجاهات الأسلوب في هذا المجال تحقيق الدلالة النفسية للتعبير وتحقيق غايتها عن طريق أختيار الألفاظ الملائمة للموقف في إطار من الإيجاز والاكتفاء بذكر الدليل على بلوغ المعني مبلغا معينا ، مع انتقاء ما يلائم ذلك من الصور البيانية المعبرة . ومن ذلك ما روى

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :[1] " من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي يود أحدُهم لو رآني بأهله وما له " .

فقد تحقق إيضاح الفكرة وبيان حدودها هنا عن طريق الجمع بين جملة من الخصائص الأسلوبية :

منها : أختيار ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالفكرة من الألفاظ والأساليب كما في " أشد ... حبا " مما يعبر عن بلوغ درجة الحب أقصاها ، باستخدام صيغة التفصيل مع ودرود هذا التمييز بعدها . وكذلك " يود " الدالة على الحب مع التمني والحرص ثم :" لو " الدالة على امتناع الحدث لامتناع شرطه ، مما يلازم المعني ويحقق دلالة ما سبق ذكره في " يكونون بعدي " .

ومنها : استخدم الضمائر استخداماً دالا على ما يتضمنه الأسلوب من شدة الحب مع الحرص ، وشدة التعلق والتلازم كما هو الحال في استخدام " ياء المتكلم " مع الألفاظ " أمتي " ، " لي " ، بعدي " ، رآني " واستخدام ضمير الغائب " الهاء " مضافاً إليه مع الألفاظ " أهله " ، ماله " .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٦١٩ .

ومنها : استخدام الكناية الدالة على بلوغ المعنى أقصاه في " لو رآني بأهله وماله " في تلازم تام مع الفكرة التي سبقتها مما يمثل سببا لها في :" من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي " .

ومنها فضلا عن ذلك : هذا التحديد الزمني في " يكونون بعدي" مما يتضمن جانبا عاما يتصل بمطلق الزمن الذي يأتي بعده ﷺ ، وجانبا خاصا يخرج بمقتضاه زمن وجوده ﷺ .

ومما يتعلق بأحوال النفس ومجالاته من الألفاظ التي تحمل دقيق المعاني وقوى التأثير ، ما يكون مرتبطاً بقضايا كلية عامة لها ما يتعلق بالعديد من المجالات والكثير من الدوائر الشعورية التي تشكل مجتمعة موقفا معينا واسع المجال والمفهوم .

ومن ذلك لفظ الغربة الذي ورد معبرا عن قضيتين متلازمتين ، قضية الحياة وما يتصل بها من القصر والسرعة ، ويتعلق بها من مظاهر عابرة ، وقضية المصير وما يتصل به من الخلود والدوام والأمور الثابتة .

ومما ورد فيه معني الغربة حاملا هذه الدلالـة مـا روى عن ابن عمر رضـي الله عنـه قـال:[1] " أخذ رسـول الله ﷺ بمنكبي وقـال : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " .

فلما كانت أحوال النفس تألف الدنيا وتتعلق بما فيها ، ولما كانت فكـرة الاغتـراب عنهـا مـع الوجـود فيهـا أمـرا غيـر مـألوف ، ممـا قـد يصـعب فهمـه واسـتيعابه والعمـل بـه ، ورد التعبيـر البيـاني دقيقـا فـي صـرف الذهن إليه ، وتقريب مـا بعد منـه وذلـك بمجموعـة مـن الوسـائل اللغوية والبلاغية :

منها : اختيار صيغة الأمر " كن " الدالة على طلب إحداث أمر لم يكن موجودا .

ومنها : إخراج المألوف القريب مخرج المستغرب البعيد .

ومنهـا : تقريـب المسـتغرب بأسـلوب التشـبيه ليصـير فـي حكـم الممكن .

ومنها : العطف المقرب للفكرة والموضح دلالة اللفظة .

ومنها : الإيجـاز الـدال المتضـمن الكثيـر مـن المجـالات المعنويـة والشعورية .

ومنهـا فضـلا عن ذلـك قـوة التـأثير بجـذب الأذهـان إلـى الحقيقـة الغائبـة عنهـا ، وتوجيـه التعبيـر إلـى مخـاطـب معيـن مـع كـون الأسـلوب

---

(١) رياض الصالحين : ٥/٢ .

عاما مجردا والقضية كلية شاملة . هذا إلى جانب ما حمله لفظ الغربة مما سلف ذكره فضلا عن كونه حاملا دلالة الترك والرديل والحرص على غاية أبعد من المرئي القريب ، مع ما يلازم ذلك من مجالات شعورية متعددة .

ومما يتصل بهذه المجالات النفسية ما يكون متعلقا بمواقف خاصة تتطلب نوعا مميزا من المعالجة الأسلوبية .

وهنا يردُ الأسلوب في شكله العام متسما بالإطالة المتضمنة الكثير من عناصر التمهيد والتفصيل ، والتنوع الأسلوبي بين الخبر والإنشاء ، والتقرير والتصوير وغير ذلك من أنماط لتعبير التي تختلف باختلاف المواقف وتنوعها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما فتح حُنَينا قسم الغنائم فأعطى المؤلفة قلوبهم ، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس ، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم فحمد الله وأثني عليه ثم قال :[1]" يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي " ويقولون : الله ورسوله أمن . فقال أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذا ، وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها زعم عمرو ألا يحفظها فقال : ألا

---

(١) صحيح مسلم : ٣ / ١٠٤ ، الشعار الثوب الذي يلي الجسد والدثار فوقه .

ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم . الأنصار شعار ، والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعْبهم ، إنكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض " .

فلما كانت الفكرة التي يدور حولها الأسلوب هنا متعلقة بموقف نفسي معين ؛ فإن التعبير والمعالجة قد اتخذا طريقهما إلى العقل والمشاعر من خلال تحديد فكري واضح للقضية ، وتأثير نفسي تدريجي مؤد إلى الإقناع .

وقد اتخذ ذلك كله طريقه إلى التحقق من خلال هذه الأسئلة التمهيدية التي تتابعت واضعة مجموعة من القضايا الفكرية أمام المخاطبين ، في إطار بلاغي واضح من التقرير والتأكيد والتذكير ، مما يفضي إلى تهيئة الأذهان وإثبات القول بموجب ما ذكر .

ثم بلغ تحقيق الأسلوب غايته مبلغا مبنيا على ما سلف من خلال هذه الموازنة الدقيقة التي وضعت بُعْداً واضحاً للفكرة وحدا فاصلا للقضية في :" ألا ترضَوْن أن يذهب الناس بالشاء والإبل ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم " ؟ .

ثم تحققت ذروة المعالجة لدى نقطة التقت لديها جميع الجزئيات السابقة من خلال هذه الصورة التشبيهية التي تركزت ضمنها عناصر التأثير والتعبير والمعالجة ، وإحلال انفعالات الرضا محل الغضب ، والفرح محل الحزن ، والقناعة محل الطمع ، في : " الأنصار شعار والناس دثار " ثم ما تلا ذلك من تعبير مؤكد له وكناية مثبته دلالته .

فهنا لم يرد التعبير البياني مستقلا بذاته مبادرا الأذهان بمضمونه ؛ بل ورد بعد تهيئة وتمهيد فكري وتأثير شعوري مفض إلى الإقناع .

وقامت المفاضلة والمعالجة على إيضاح الأبعاد ووضع الحدود وبيان المسافات المعنوية في إطار ملموس مستشعر .

وقامت وسائل الإرضاء النفسي على أسس واقعية وأسباب حقيقية .

واستمد التعبير البياني عناصره من واقع المعاني المتعلقة بمشاعر الملازمة والقرب مما يناسب ما صدرت عنه القضية من أمور، ورافق المعالجة النفسية الخاصة بالمخاطبين معالجة نفسية عامة لغيرهم ، فلم ينبثق عن الأسلوب قضايا جانبية تتطلب معالجات أخرى .

وهكذا اتسم التعبير في جملته بالاتساق الفكري والشعوري بجانبيهما العام والخاص ، في إطار من التدرج والتنوع الآخذين بيد المتلقي إلى الحقيقة الثابتة والإقناع التام .

وينتقل التحديد الدلالي للفكرة المجردة هنا إلى نمط آخر من أنماط المعالجة النفسية ، من خلال الارتكاز على أسلوب من الانتقال الفكري الذي يتم في إطاره مقارنة القضية المنشود معالجتها بصورة تعبر عن هيئة يمكن من خلال تأملها تبين تمكن الأثر النفسي المترتب على تلك القضية في النفس والتصور تنفيراً منها أو ترغيبا فيها.

وقد يقوم ذلك على تصوير هيئة كاملة لموصوف مختلف تمام الاختلاف عن الموصوف الذي يهدف التعبير إلى معالجة شيء متعلق به .

ومن ذلك ما روى عن أبي سفيان عن جابر أن النبي ﷺ قال[1]: " إذا سجد أحدكم فليعتدل ، ولا يفترش ذراعيه افتراش الكلب ". فقد اتضح مضمون النهي هنا عن طريق هذا الانتقال الفكري من المنهي عنه إلى تأمل هيئة ما اقتران به من الصور الحسية التي يمكن من خلال تأملها ورسوخها في التصور والمشاعر حصول مشاعر النفور والاشمئزاز اللذين يتم من خلال حصولهما الرجوع إلى القضية المنهي عنها وتأملها في ضوء ما تحقق من الموقف النفسي الصادر عن تلك المشاعر . وهنا تتمكن دلالة التعبير وتأخذ طريقها إلى

---

(١) الترمذي ١ / ١٧١ .

المعالجة ، ويثبت الأثر النفسي ملازما لها مما يترتب عليه رسوخ ذلك في السلوك العملي المنشود .

وقد يقوم ذلك على تصوير جانبيّ لهيئة مخصوصة متعلقة بنفس الموصوف الذي يهدف التعبير إلى معالجة أمر متصل به .

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عباس أنه رأى عبد الله بن الحارث يصلي ورأسه معقوص من ورائه فقام فجعل يحلّه فلما انصرف أقبل إلى ابن عباس فقال : مالك ورأسي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (١) " إنما مَثَلُ هذا مَثَلُ الذي يصلي وهو مكتوف " .

ويبلغ التأثير النفسي أشد درجاته ارتباطا بما ينطوي عليه المضمون من أمور ، وما يترتب عليه من نتائج ، ويتعلق به من شدة الأثر أو كبير الضرر أو ضعة الشأن .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (٢) " حملت على فرس في سبيل الله [فابتاعه أو] فأضاعه الذي كان عنده ، فأردت أن أشتريه [منه] ، فظننت أنه يبيعه برخص ، فسألت [عن ذلك] النبي ﷺ ؛ فقال : " لا تشتر ولا تعد في صدقتك ،

---

(١) صحيح مسلم : ٢ / ١٢٧ .
(٢) مختصر صحيح البخاري ١/ ٣٥٤ .

وإن أعطاكه بدرهم ، فإن العائد في صدقته " " وفي رواية : هبته " كالعائد " وفي رواية : كالكلب يعود " في قيئة .

وقد يقوم عنصر التأثير النفسي بتحقيق غاية التعبير من خلال رسم هيئة خيالية للموصوف صدورا عن طبيعته وصفته وأثره .

وحينئذ يقوم التصوير بذور التأمل لتلك الهيئة الخيالية محققا من خلال ذلك الكشف عن الكثير من كوامن الموصوف وما يخفي من الحقائق المتعلقة به .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (1) " تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه ، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه " .

فتلك الهيئة الخيالية للموصوف ذي الوجهين هيئة توضح الكثير من صفاته وتحدد الكثير من الأبعاد الدلالية لتلك الصفات ، وتقوم بالفصل الواضح بين جانبين متناقضين مجتمعين فيه ، مما ينشأ عن استيعابه وتأمله التعجب منه ثم النفور من قبحه وسوئه .

---

(١) صحيح مسلم : ٥ / ٣٨٦

ومن اتجاهات التعبير البياني في هذا المجال الذي تقوم من خلاله عناصر هذا التعبير بدور التحديد الدلالي للفكرة الذهنية المجردة ؛ اتجاه يتم خلاله تحقيق جميع الجوانب الدلالية والآثار النفسية من خلال التركيز اللغوي للصورة البيانية في شكل من أشد صور التركيز والتحديد .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : [1]

" الصيام جُنّة "

فكل ما يتعلق بلفظ " جنة " من الحفظ والستر والمنع ، وما يتعلق بصاحبها من تجنب للمخاطر ، وبعد عن أسبابها ، وما يرتبط بجميع ذلك من نتائج وغايات وآثار شعورية اجتمعت كلها في إطار واحد لدى هذا اللفظ المقترن بلفظ " الصيام " والموضح طبيعته وفوائده وغاياته وآثاره .

فهو تعبير بياني جامع من خلال إيجازه ، قوي من خلال تركيزه وتأثيره ووضوحه .

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٢٠٧ .

وهكذا تتعدد وسائل الأساليب البيانية في التحديد الدلالي للمعاني الذهنيـة المجـردة فـي الحـديث النبـوي الشـريف ، وتتخـذ الكثيـر مـن الاتجاهـات ، وتظهر فـي العديـد من الأنمـاط ظهورا يتضـح عبـره مـا يمتاز به هذا الأسلوب من خصـائص تعبيريـة ، وقدرات تأثيريـة ، من خلال ما يرد عليـه فـي كل حـال من ملاءمـة للموضـوعات المتنوعـة ، واتساق مع الأوضاع والأحوال والشخصيات العديدة ، مما ترتـب عليـه وروده علـى هـذه الشـاكلة ذات الخصـائص البلاغيـة والأسـلوبية محققـا غاياته في كل حال.

الفصل السادس

أولاً : الكناية

ثانياً : الدراسة التطبيقية في أساليب الكناية من خلال الإعجاز القرآني الكريم

الفصل السادس

أولاً :- الكـــنايــة

أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي تحقق غاية من أسمى غايات البيان والبلاغة بما تتضمنه من الدلالة على المعني مصحوباً بالبرهان الدال على ذلك المعني .

ولإيضاح ذلك يمكن الرجوع إلى تعريف الكناية لدى البلاغيين؛ فهي : " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ " (١) " كقولك : " فلان طويل النجاد " أي :" طويل القامة " و : " فلانة نؤوم الضحى " أي :" مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها إلى إصلاح المهمات " ... ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم في الضحى من غير تأويل " (٢).

وتفصيل هذا الكلام أن قولهم :" محمد طويل النجاد " معناه الحقيقي : أن " نجاد محمد طويلة " ، وليس هذا مرادا ،وإنما المراد لازم هذا المعني ، وهو أن محمدا طويل القامة " ، إذ يلزم عادة من

---

(١) لازم المعني وهو المقصود يقال له معني كنائي ، وملزومه يقال له معني حقيقي ، وجواز إرادة المعني الحقيقي في الكناية بالنظر إلى ذاتها ، وقد تمتنع إرادته فيها لعارض يمنع من إرادته ، كقوله تعالى : " ليس كمثله شيء " – ي – ١١ – س ٤٢ على القول بأن الكاف أصلية وأنه يفيد نفي المثلية بطريق الكناية ، فلا يصح إدارة المعنى الحقيقي فيه لأنه يفيد ثبوت المثل لله تعالى . (أنظر في ذلك : بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدي : ٣ : ١٧٣(المطبعة النموذجية) .

(٢) نفسه .

طول النجاد أن تكون القامة طويلة ، ويصح مع هذا إرادة المعنى الحقيقي أيضاً بأن يراد المعنيان معاً : طول النجاد ، وطول القامة .

قال عبد القاهر الجرجاني :" الكناية أن يريد المتكلم إثبات معني من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه " [1].

ففي الكناية " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك ، كما في المثال المذكور سالفاً : " فلان طويل النجاد " لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو طول القامة، وسمي هذا النوع " كناية " لما فيه من إخفاء وجه التصريح ، ودلالة " كني " عن ذلك ، لأنها كيفما تركبت دارت مع تأدية معنى الخفاء ؛ من ذلك : كني عن الشيء يكني إذا لم يصرح به [2].

ما الفرق بين الكناية والمجاز ؟

الفرق بين الكناية والمجاز يتضح في كون الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها ، فلا مانع مطلقا في قولك :" فلان طويل النجاد " أن يكون المراد " طول نجاده " مع إرادة " طول قامته " .

---

(١) عبد الظاهر : دلائل الإعجاز : ٥٢ .

(٢) انظر السكاكى : مفتاح العلوم : ٢١٣ .

فالكناية تخالف المجاز من جهة أن قرينة المجاز مانعة من إرادة المعني الحقيقي ، ففي قولك :" رعينا الغيث " لا يمكن أن يقال المراد هو " الغيث "، ولكن يقال هو " النبات " ، وذلك - كما هو واضح في المجاز المرسل - ، وفي قولك :" كلمت الأسد " لا يمكن أن يقال : المراد هو :" الحيوان المفترس " لأن فيه قرينة تمنع من ذلك ، وهي:" كلمت " فالكلام من شأن الإنسان ، أما قرينة الكناية فهي غير مانعة من إرادة المعني الحقيقي كما اتضح لك .

○ <u>أقسام الكناية</u>

تنقسم الكناية إلى أقسام ثلاثة ، وذلك يقوم على أساس النظر إلى المكني عنه ؛ فحين نتأمل هذا الجانب نجده لا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة ؛ وهي :

١- كناية عن صفة .

٢- كناية عن موصوف .

٣- كناية عن نسبة صفة إلى موصوف .

- ففي القسم الأول وهو : (الكناية المطلوب بها نفس الصفة) يكون التصريح فيها بالموصوف ذاته ، وبالنسبة إليه ، ولا يصرح بالصفة المطلوب نسبتها ، ولكن يذكر مكانها صفة تستلزمها .

ولبيان ذلك يمكن تأمل قول الشاعر : [1]

كثير رماد القدر رحبٌ فناؤه * إلى سند لم تحتجنه غيوب [2]

إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا * فلم تُنطقُ العوراء وهو قريب [3]

فقوله :" كثير رماد القدر " ، و " رحب فناؤه " ، و " إلى سند لم تحتجنه غيوب " ، و " إذا ما تراءاه الرجال تحفظوا فلم تنطق العوراء وهو قريب " . نجد أربع كنايات ، ونجد الثلاثة الأولى منها تدل على أن الرجل كريم ، فهو كثير الرماد ، أي كثير الطبخ كثير الضيفان ، كناية عن الكرم ، وكذلك رحب فناء الدار لكثرة الأضياف ، أي كريم ، وكذلك بيته في مرتفع ظاهر لا تحويه منخفضات حتى يراه من يقصده ، أي كريم أيضا ، والرابعة كناية عن أنه رجل مهيب ، فإذا رآه الرجال تحفظوا في كلامهم ، ولم ينطقوا في حضرته بالكلمة القبيحة ، وهذه الكنايات كلها يكني بها عن " صفة " .

وهذه " الكناية " عن صفة " نوعان : قريبة وبعيدة .

فالقريبة :" ما ينتقل الذهن منها إلى المقصود بلا واسطة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه .

---

(١) القائل هو : غريقة العبسي ، وهو رجل من بني عبس ليس له شهرة .
(٢) السند : المرتفع . احتجنه : احتواه . الغيوب : جمع غيب وهو المنخفض .
(٣) العوراء : الكلمة القبيحة .

وذلك مثل أن نقول :" فلان طويل النجاد " إذا أردنا أن نكني بذلك عن " طول القامة " أو :" فلان كثير الأضياف " كناية عن كرمه .

والبعيدة :" ما ينتقل الذهن منها إلى المقصود بواسطة " مثل : " محمد كثير الرماد " كناية عن أنه كريم جواد ، فالمطلوب بهذه الكناية صفة " الجود " ، وبين كثرة الرماد وصفة الجود نوع من الخفاء لا يتضح إلا بعد الانتقال من كثرة الرماد إلى كثرة الإحراق ، ومن كثرة الإحراق إلى كثرة الطبخ ، ومنها إلى كثرة الآكلين ، ثم كثرة الضيفان ، ومنها إلى :" الجود " .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الشاعر :

ومايك فيّ من عيب فإني * جبان الكلب مهزول الفصيل [1]

فإنه ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يدنو من دار هو مقيم على حراستها – مع أن ذلك ليس من طبيعته – إلى استمرار زجره وتأديبه حتى تغير عن عادته ، ثم إلى استمرار موجب نباحه وهو اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه ، ومن هذا إلى كونه ملجأ للقاصي والداني ، ومن هذا إلى أنه مشهور بحسن قرى الأضياف .

---

(١) الفصيل ولد الناقة وهزاله بحرمانه من لبنها بنحرها أو بإيثار الضيفان به ، حتى أنه لا عيب فيه إلا ذلك فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم (انظر في ذلك : بغية الإيضاح : ٣ : ١٧٨) .

وكذلك ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومنه إلى قوة الداعي إلى نحرها لكمال عناية العرب بالنوق ، ومن هذا إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومن هذا نصل إلى الكناية عن كرمه أي أنه مضياف .

● وفي القسم الثاني وهو (الكناية المطلوب بها نفس الموصوف) يكون التصريح فيها بالصفة وبالنسبة ، ولا يصرح بالموصوف المطلوب النسبة إليه ، ولكن يذكر مكانه صفة تختص به .

ولبيان ذلك يمكن تأمل قول زهير :

وأماما فُويق العقد منها * فمن أدماء مرتعها الخلاءُ (١)

فهو يكني عن " العنق " بقوله :" ما فويق العقد " ، وهذه الكناية تسمي كناية عن موصوف ، لأن العنق ذات توصف .

وكذلك يمكن تأمل قول حافظ :

تَنْدَي وتيبس للخلائق كفُّه * بالماء طوع الأصفر الرنَّان (٢)

فهو يكني عن " الذهب " بقوله " الأصفر الرنان " وهذا موصوف أي ذات توصف – كما في البيت السابق لزهير – وهذه الكناية تسمى كناية عن موصوف .

---

(١) الأدماء : الظبية .
(٢) البيت في وصف مرتش .

وهذه الكناية نوعان :

الأول : " هو ما كانت الكناية فيه لفظاً دل على معني واحد [1] ، ثم أريد به ذات أختص بها هذا المعني " .

والثاني :- ما كانت الكناية فيه ألفاظاً دلت على معان يضم بعضها إلى بعض ليجعل المجموع كناية عن ذات واحدة اختصت بهذا المجموع " .

فمثال الأول قول شوقي في محاسن اللغة العربية :

إن الذي ملأ اللغات محاسنا * جعل الجمال وسرّه في الضاد

فقد كنى بالضاد عن اللغة العربية ؛ لأن حرف الضاد من خصائصها التي تدل عليها .

وقول أبي العلاء المعري :

سليلُ النار دقّ ورقّ حتي * كأن أباه علمه السُلالا [2] .

فقد كنى بقوله :" سليل النار " عن " السيف " لأن للنار شأنا كبيرا في صنعه ، فكأنها ولدته وأنتجته .

وقول الشاعر :

---

(١) المراد بالمعني الواحد هنا : ألا يكون من أجناس مختلفة وإن كانت مثني أو جمعا .
(٢) السلاسيل بالضم : السل .
السلول

قوم تري أرماحهم يوم الوَغي * مشغوفةً بمواطن الكتمان [1] .

فقد كنى بـ " مواطن الكتمان " عن القلوب ، لأنها مواضع الأسرار الخفية .

ومثال النوع الثاني : قوله تعالى : [2] : {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} .

فقد كنى – سبحانه وتعالى – " بألواح ودسر " عن السفينة ؛ لأن مجموع الأمرين مجتمعين وصف مختص بالسفينة ، وقوله تعالى :" {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} " [3] ، فالآية كناية عن " المرأة " ، لأن مجموع الأمرين وصف خاص بها .

ومن أمثلة الكناية عن " الموصوف " ، فضلا عما سبق ، قول الشاعر كناية عن القلب :

الضاربين بكل أبيض مِخْذَم * والطاعنين مجامع الأضغان [4]

فـ " مجامع الأضغان كناية عن القلوب " .

---

(١) الوغي : الحرب .
(٢) سورة القمر : الآية ١٣ ودسر : جمع دسار ككتاب ، وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ، وقيل : هي المسامير .
(٣) الحلية الزينة ، ومعني التنشئة فيها : التربية فيها ، الخصام : الجدال .
(٤) الأبيض السيف ، والمخذم : القاطع .

● وفي القسم الثالث وهو : (الكناية المطلوب بها نسبة) يكون التصريح فيها بالموصوف والصفة ، ولا يصرح بالنسبة بينهما ، ولكن يذكر مكانها نسبة أخرى تستلزمها ، وهذه النسبة إما أن تكون إثباتاً أو نفياً ، ومعني ذلك أن هذه الكناية يطلب بها : تخصيص الصفة بالموصوف ، ولبيان ذلك يمكن تأمل قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمُروءة والندى * في قبة ضُربتْ على ابن الحَشْرَج

فإنه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات أي ثباتها له ، وأراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات له ، فجمعها في قبة ، وجعلها مضروبة عليه ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظير هذا قولهم :" الكرم بين ثوبي محمد " كناية عن إثبات الكرم له ، فقد صرح في هذه الكناية بالموصوف ، وهو " محمد " ، وصرح بالصفة ، وهي :" الكرم " ، ولكنه لم يصرح بنسبة الكرم إليه ، وإنما ذكر مكانها نسبة أخرى ، هي نسبة الكرم إلى ثوبيه إثباتاً ، وهذه تستلزم نسبة الكرم إليه ، من حيث وجوده بين ثوبيه الخاصين به . ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر :

والمجد يدعو أن يدوم لجيده * عِقدٌ مساعي ابن العميد نظامُهُ

فقد أراد أن يثبت المجد لابن العميد ، لا على سبيل التصريح ، فاثبت له المساعي ، وجعلها نظام عقد ، وبيّن أن مناط ذلك العقد هو جيد المجد ، فنبه بذلك على اعتناء ابن العميد بتزيين المجد ، ونبه بتزيينه إياه على اعتنائه بشأن المجد ، وعلى محبته له ، ونبه على أنه ماجد ، ولم يكتف بذلك حتي جعل المجد المعرّف تعريف الجنس ليفيد العموم داعيا أن يدوم ذلك العقد لجيده ، فنبه بذلك على طلب حقيقة المجد ، ودوام بقاء ابن العميد ، ونبه بذلك أيضاً على أن تزيينه والاعتناء بشأنه مقصور علىٰ ابن العميد ، مختص به ، وأكد ذلك أبلغ تأكيد .

وقول حسان :

بني المجدُ بيتاً فاستقرت عماده * علينا فأعيا الناس أنْ يتحولا [1]

فقد كنى بذلك عن نسبة المجد إلى قومه .

وقول الشنفري في وصف أمرأة بالعفة :

يبيت بمنجاةٍ من اللوم بيتُها * إذا ما بيوتٌ بالملامة حَلّت

فإنه لما أراد أن يبين عفافها وبراءة ساحتها عن التهمة ، وكمال نجاتها عن أن تلام بنوع من الفجور على سبيل الكناية ، صرح

---

(١) العماد : بوزن الكتاب : الأبنية الرفيعة ، وهو جمع عمادة بكسر العين . أعيا الناس : أعجزهم ، التحول : التنقل

بالموصوف ، وهو :" الضمير " في :" بيتها " والعائد على المرأة ، وصرح بالصفة ، وهي :" اللوم المنفي " في قوله :" بمنجاة من اللوم " ولم يصرح بنسبة نفي اللوم عنها ، ولكن ذكر مكانها نسبة أخرى هي :" نفي اللوم عن بيت يحتويها " ، وذلك يستلزم نفي اللوم عنها .

ومن الكناية عن نسبة فضلا عما سبق ، قول المتنبي :

إن في ثوبك الذي المجد فيه * لضياءً يُزري بكل ضياء

وقول أبي ماضي :

متقربٌ من صاحبي فإذا مشت * في عِطفه الخيلاء لم أتقرب [1]

فقد أراد المتنبي أن ينسب المجد إلى كافور ، فنسبه إلى ثوبه ، ولا شك أن الثوب من أهم ما يخصه ، فإذا نسب المجد إلى ثوبه فقد نسبه إليه .

كما أراد أبو ماضي أن يجعل الكبرياء يمشي في عطف صاحبه، حتي ينسب الكبرياء إليه ، فنسبه إلى عطفه .

فالتصريح بالصفة واضح في " المجد " و " الكبرياء " ، ونسبة كل منهما إلى شيء له تعلق بصاحبها في كل حال دون التصريح المباشر مما يدعو إلى إيضاح كونهما كنايتين نسبة .

---

(١) العطف : الجنب .

• الكناية والتعريض

يري البلاغيون أن " **التعريض** " هو " ما أشير به إلى غير المعني بدلالة السياق ، سواء أكان المعني حقيقة أم مجازاً أم كناية .

فمثال التعريض المستعمل في المعني الحقيقي قول القائل :" أنا لست بمؤذ الناس " فإن معناه نفي أذاه عن الناس ، بدلالة السياق على كون من تكلم المتكلم عنده مؤذيا لهم.

ومثال التعريض المستعمل في المعني المجازي قول القائل : " أنا لست طاعنا في عيوبهم " فإن معناه الأصلي نفي طعنه في عيوبهم ، ومعناه المراد هنا نفي أذاه عنهم ، وذلك باستعارة " الطعن في العيوب " ، ويشير المتكلم هنا أيضا بدلالة السياق إلى كون من تكلم عنده مؤذيا طاعناً في عيوبهم .

ومثال التعريض المستعمل في المعني الكنائي :" المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " إذ معناه الأصلي انحصار الإسلام فيمن سلم المسلمون من لسانه ويده ، ومعناه الكنائي اللازم للمعني الأصلي انتفاء الإسلام عن المؤذي مطلقا ، وهو المقصود باللفظ ، ويشير بسياقه إلى نفي الإسلام عن المؤذي المعين الذي تكلم المتكلم عنده بهذا الحديث الشريف .

ومن ذلك يتضح أن التعريض يشارك كلا من الحقيقة والمجاز والكناية بأن يقصد باللفظ واحد منها ، ويشارك بدلالة السياق على المعني المعرّض به ، فلا يوصف اللفظ بالنسبة للمعني التعريضي لا بحقيقة ولا بمجاز ولا بكناية (١) .

وموقع التعريض يكون في الجمل المترادفة والألفاظ المركبة ، ولا يرد في الكلم المفردة بحال ، والسر في ذلك أن دلالته على ما يدل عليه لم تكن من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز .

وإنما دلالة التعريض تأتي من جهة القرينة والتلويح والإشارة ، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد ، ولكنه إنما ينشأ من جهة التركيب ، فلهذا كان مختصا بالوقوع فيه .

ومن أمثلة التعريض للإنصاف ، قول الله سبحانه وتعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (٢) .

وهذا عند البلاغيين أيضاً من :" تجاهل العارف " ، وسماه السكاكي سوق المعلوم مساق غيره ، وكره تسميته بالتجاهل لوروده في كلام الله تعالى ، والمعني :" إنا لضالون أو مهتدون ، وإنكم أيضاً

---

(١) انظر في ذلك : علم البيان : بدوي طبانة : ٢٥١ وما بعدها .
(٢) انظر : السابق : ٢٥٥ .

لضالون أو مهتدون " والله عز وجل يعلم أن رسوله هو المهتدي ، وأن مخالفه هو الضال .

ويظهر الفرق بين " الكناية " والتعريض " عند بعض علماء البلاغة [1] من عدة أوجه :

أولها : أن الكناية واقعة في المجاز معدودة منه ، بخلاف التعريض فلا يعد منه ، وذلك لأن التعريض مفهوم من جهة القرينة ، فلا تعلق له باللفظ لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

ثانيها : أن الكناية كما تقع في المفرد فقد تكون واقعة في المركب بخلاف التعريض ، فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

ثالثها : أن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض ، فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة ، ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه ، فهو أوضح مما لا يدل عليه اللفظ ، إن علم بدلالة أخرى .

---

(١) نفسه

● بلاغة الكناية وأسرار قوة التعبير بها

سبق القول بأن أسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي تحقق أسمي غايات البيان والبلاغة بما تتضمنه من الدلالة على المعني مصحوباً بالبرهان الدال على ذلك المعني ، وأسباب ذلك تتضح فيما يلي :

● إن أسلوب الكناية يقوم على التعبير عن المعني مقترنا بما يدل عليه، أي أنه كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ولذلك فهي أبلغ من التعبير الصريح ، لأن تأدية المعني بذكر لازم من لوازمه يستدعي وجود الملزوم حتما ، وذكر الشيء مصحوباً ببرهانه ودليله أوقع في النفس وآكد لإثباته من ذكره دون برهان ، ففي قول جرير :

ويقضي الأمر حين تغيب تَيْمٌ * ولا يُستأمرون وهم شُهود

نراه يكني عن ذلتهم ، ويأتي بالكناية برهانا على صدق دعواه ، فهوانهم وذلتهم بلغت من الأمر مبلغاً شديداً ، بحيث إن الناس يقضون في الأمر وهم غائبون ، وإذا حضروا وقت القضاء في الأمور ، فإنهم لا يؤخذ برأيهم .

● ومن بلاغة الكناية أن لها من الأثر في النفس ما لا يتحقق في التعبير الصريح ؛ ذلك أن الكناية تعرض المعني مصوراً بصورة محسوسة ؛ ففي قول الله تعالى : { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [1] ، نجد معني الحسرة والندم اتضح في هذا الأسلوب القرآني العظيم (أسلوب الكناية) مجسداً محسوساً عن طريق صورة تقليب الكفين على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها مما يدل على قوة وشدة تلك الحسرة وذلك الندم .

وفي قول الله تعالى : { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ}[2] نجد معني " الكفر والعناد والإعراض " مجتمعا في صورة محسوسة في قوله تعالى : { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ }، قال ابن عباس وقتادة :" يحركونها استهزاء ، وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها لأن الإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل"[3] ، فهذه الحركات المحسوسة وضحت المعني مصحوباً بالدليل الحسي الحركي عليه .

- فالكناية أبلغ من التصريح ، وأجمل من الإفصاح ، ولكن عبد القاهر يرى أنه ليس معني ذلك أنك :" إذا كنيت عن المعني زدت في ذاته ، بل المعني أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد"[4] .

- ومن وجوه بلاغة الكناية – فضلا عن ذلك – أنها وسيلة من وسائل إخفاء المعني حين يكون المقام غير ملائم للتصريح به ؛ فمن عادة

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٢ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٥١ .
(٣) تفسير ابن كثير : ٥ : ٥٤ .
(٤) دلائل الإعجاز : ٥٨ .

العرب أنهم يعمدون إلى الكناية في المواضع التي يصعب فيها التصريح، أو لا يحسن ذكر الشيء باسمه ، ومن ذلك الكناية عن المرأة ببيضه الخدر ، وعن النساء بربات الحجال ، وعن الزوجة بالوديعة .

ثانياً : الدراسة التطبيقية في أساليب الكناية من خلال الإعجاز القرآني الكريم

يرد أسلوب الكناية في إطار الإعجاز القرآني الكريم في مجالات كثيرة ، اتضح بعضها فيما سبق ، ويتضح الكثير منها في مجالات التعبير القرآني المتنوعة .

ومن هذه المجالات التي يتضح فيها الإعجاز البلاغي القرآني الكريم في مجال الكناية : " **مجال بيان شأن الصلاة** " (1) .

فلقد تعلق بيان شأن الصلاة بأسلوب الكناية الدالة بوضوح في الكثير من المجالات ؛ فإذا كان تعظيم شأن الصلاة متعلقاً بالمحافظة عليها والقيام على نحو خاص إليها ، فإن ذلك يرد متعلقاً بكناية دالة على إنكارها ، والاستخفاف بها وبالدين كله لدى طوائف ذكرهم الله تعالى بقوله : **{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا }** (2) ، " فالكلام مسوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهارا لكمال شقاوتهم " (3) .

---

(1) انظر : كتاب : من بلاغة القرآن الكريم في بيان شأن الصلاة : " فتحية محمود فرج العقدة " : ٩١ وما بعدها .
(2) سورة المائدة : الآية ٥٨ .
(3) روح المعاني : الألوسي : ٦ : ٣٣٨ .

وترد الكناية الدالة على فساد العقيدة وتجرد القلوب من الإيمان واليقين في قوله تعالى : { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً } (١) . فقوله تعالى – في جواب شرط " إذا " – قاموا كسالى ، كناية عن استثقالهم الصلاة " كالمكره على الفعل لأنهم لا يعتقدون ثوابا في فعلها ولا عقابا على تركها " (٢) وقد تولت الحال الثانية " يراءون الناس " بيان شأن الأولى وسببها .

هذا فضلا عما تتضمنه هذه الكناية من إشارة إلى شأن القيام إلى الصلاة ، وما يجب لها من استعداد ونشاط نفسي وبدني وصدق يقين وخشية لله تعالى .

<u>قوله تعالى : {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى } وما يتضمنه من (الكناية) عن الكفر :</u>

واجتمع نفي التصديق ونفي الصلاة في إطار العطف في قوله تعالى :

{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} (٣) .

فالكناية عن عدم التصديق وعدم الصلاة ، لها دلالتها الواضحة على عقيدة صاحبها ، وما صار إليه أمره حال الموت وما بعده .

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٤٢ .
(٢) روح المعاني : الألوسي : ٥ : ١٦٨ .
(٣) سورة القيامة : الأيات ٢٩: ٣٢ .

وهنا تعددت عناصر بيان المعنى من خلال " سياق السورة " ؛ فنفى التصديق دل عليه وبينه قوله تعالى : { يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}: " أي لا يؤمن بالبعث " " فلا صدق " بالرسول (ولا) بالقرآن"[1].

ونفي التصديق – مطلقاً – تعلق بحذف مفعول صدق أي : لم يصدق الرسول ﷺ وحذف هذا المفعول " أبلغ في التعميم " [2]

وعطف نفى الصلاة على نفى التصديق من عطف الخاص على العام لما في دلالة عدم التصديق على التكذيب المطلق . .

أما التضاد بين ما ورد ذكره من الألفاظ في قوله تعالى: {وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} بعد قوله {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى } فلا يخفى ما فيه من بيان بلوغ التكذيب و التولي مبلغه باقترانه بنفي التصديق ونفي الجانب العملي المبني عليه وهو الصلاة .

وما ورد في رحاب ذلك من قوله تعالى : {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ } في هذه الكناية عن حال الموت " لأن المشي لا يكون إلا مع انفصال إحدى الساقين عن الأخرى ، أو عن اشتداد الأمر جدا وبعده عن الخلاص ؛ فإن العرب لا تذكر الساق في مثل هذا السياق إلا في

---

(١) الزمخشري : الكشاف : ٤ : ١٩٣ .
(٢) نظم الدرر : برهان الدين البقاعي ٢١ : ١١١ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

أمر شديد " (1) . فله دلالته الملائمة لهذا السياق حيث ذكر التكذيب وما ترتب عليه إشارة إلى عاقبته ، وإشارة كذلك إلى فوات وقت العمل أو الرجوع إليه .

أما ورود هذا النفي في الفعلين : " فلا صدق ولا صلي " بـ " لا " دون غيرها فلأنها " بمعني لم " ولذا اختصت بالدخول على الماضي ... أي لم يصدق ولم يصل " (2) .

بيان شأن " الركوع " بكونه " كناية " عن الخشوع والتواضع لله جل شأنه :

وذلك في بيان الامتناع عن الركوع ، وما يدل عليه من الاستكبار عن طاعة الله سبحانه ، قال تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (3).

فقوله تعالى : " اركعوا " أي اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه ، واطرحوا هذا الاستكبار ... " وقيل ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود "(4) .

---

(1) السابق : 109 .
(2) البرهان في علوم القرآن : الزركشي : 4 : 355 ووضح ذلك الأخفش فقال " أي فلم يصدق ولم يصل ، كما تقول : ذهب فلان ، فلا جاءني ولا جاءك . انظر : معاني القرآن : الأخفش الأوسط : 2 : 518 .
(3) سورة المرسلات : الأيات 46 : 50 .
(4) الزمخشري : الكشاف : 4 : 205 .

وقد يكون التعبير بالركوع مجازا عن الصلاة بعلاقة الجزئية " وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ، ولأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله " [1].

تعظيم شأن السجود " بالكناية " عن هول عاقبة تركه مقترناً بأهوال القيامة :

قال الله تعالى : {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } [2] :

إن ذكر السجود هنا اتخذ إطارين ؛ أحدهما مقترن بذكر هول القيامة الذي كني عنه بقوله تعالى : {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } فهو " مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب وأصله في الروع والهزيمة ... (ومعناه) : يوم يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق ... (وتنكير ساق) للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف كقوله تعالى : { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ } كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل ... أي يوم تشتد الحال أو الساعة ، كما تقول : كشفت الحرب عن ساقها على المجاز " [3].

---

(١) نظم الدرر : البقاعي ٢١ : ١٨٦ .
(٢) سورة القلم : الأيتان ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) الكشاف : الزمخشري : ٤ : ١٤٧ .

وهنا ورد الأمر بالسجود " توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إياه في الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك " فلا يستطيعون " لزوال القدرة ، ... وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم ، وعن ابن مسعود تعقم أصلابهم أي تردّ عظاماً ، بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض " (١) .

والإطار الثاني الذي ورد فيه السجود هو إطار زمني مضى ، وهو ما أشير إليه بقوله تعالى : { وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } .

فذكر السجود هنا بإظهاره في موضع الإضمار بياناً لشأنه وزيادة في تقريع الأمر وتأكيد حدوثه ، وإقامة للحجة عليهم حيث أرسلت الرسل وبلغت الشرائع متضمنة في كتب الله تعالى .

هذا فضلاً عما يتضمنه قوله تعالى : {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ } من الزجر والترهيب من تركه والتحذير من فوات وقته .

والجانبان يجتمعان في إطار تقابلي تلتقي خلاله أهوال القيامة حيث العجز عن السجود مع الرغبة فيه ، بأحوال الدنيا حيث القدرة على

---

(١) روح المعاني : الألوسي : ٢٩ : ٣٥ .

السجود مع الامتناع عنه ، كما يجتمعان في إطار السبب والمسبب ، والعمل والجزاء ، والانقضاء والدوام .

<u>السياق القرآني العام وبيان دلالة هذه الكنايات في أسلوب يقابلها :</u>

تولي النظم القرآني الكريم بيان تعظيم شان الصلاة ركوعا وسجوداً وخشوعاً وما إلى ذلك بكنايات دالة جامعة تقابل ما سبق ذكره هنا من كنايات دالة على الترك والإعراض والاستهزاء بالصلاة وأعمالها .

من ذلك قوله تعالى :{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا *وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} (١) .

فهذه الكناية عن سرعة الاستجابة للحق بمقتضى العلم به وسماعه ، والصدور في ذلك عن " الخشوع " ، والعلم " بما في الكتب السماوية ، يقابل الكنايات السابقة وما تضمنته من دلالات على الإعراض وقصور العلم والعقل عن إدراك الحقيقة الموجبة لذلك .

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ١٠٧ : ١٠٩ .

والثناء هنا يقابل الذم هناك ، والتكريم يقابل التقريع ، وما يقوله هؤلاء حال سجودهم من دلائل إيمانهم : {إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} يقابل أقوال المنكرين له ، والجاحدين به .

والامتناع عن السجود والركوع يقابله هنا : " يخرون للأذقان يبكون " ، وازدياد المعرضين نفورا من الحق هناك يقابله هنا "{وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } " .

وما يجب من عدم المبالاة بشأن أولئك المعرضين ، يوضحه هنا استواء الأمر والنهي في مخاطبتهم {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا } معلّلاً بما ذكر بعده من خشوع هؤلاء وسرعة استجابتهم وصدقهم .

ودلالات الإعراض والكنايات عنها قابلها هنا الكناية عن شدة الخشوع بالسجود وبالبكاء .

وقوله تعالى : {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا } " أمر بالإعراض عنهم ... وألا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ؛ فإن خيرا منهم وأفضل العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحي ، وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم ، فإذا تُلي عليهم خروا سجدا وسبحوا لله تعظيماً

لأمره ، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله : {إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} ، { وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} "[1] .

وهكذا اتضح أسلوب الكناية في هذا المجال ، وطرق أدائه في إطار غيره من الأساليب البلاغية التي أظهرت عظم شأن الصلاة ، وحققت غاياته وآثاره في النفس بما تميز به هذا الأسلوب الكنائي القرآني المعجز من وجوه ووسائل .

والله ولي التوفيق
والسداد

(١) الكشاف : الزمخشري : ٢ : ٤٦٩ .

الفهـــرس